

عملنا لم ننشر

عبد الوهاب مطاوع

فتاة من قاع المدينة



دار المعرفة للطباعة

مكتبة فريق (متميزون).

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمه:

هذا العمل (تحويل كتاب: فتاة من قاع المدينة).. للكاتب عبدالوهاب مطاوع إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي. وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

كتب مآعة لبريد الجمعة

فتاة من قاع المدينة

عبدالوهاب مطاوع

مقدمة..

تستغرقني أحياناً قراءة رسائل بريد الجمعة وتشدني إلى عالمها الغريب.. حتى
لتمضي الساعات الطويلة وأنا غارق فيها فلا أحس بانقضاء الوقت إلا من تبشير
نور الصباح تتسلل على استحياء من نافذة غرفة مكتبي.

فأكتشف لحظتها أن ليلة أخرى من العمر قد مضت مع هموم البشر.. ولم تنته بعد
الهموم، ولقد اكتسبت من طول المعيشة عادة غريبة لا أعرف تفسيراً لها.. هي
تخيل العالم الذي تروي لي عنه الرسالة.. حتى أكاد " أرى " أبطاله.. " يتحركون
أمام مخيلتي كأنهم أصدقاء أعزاء أعرفهم على البعد ومن بين الأصدقاء الذين
عشت معهم في عالمهم أصحاب هذه الرسائل.

عبد الوهاب مطاوع



فتاة من قاع المدينة..

أعذر في البداية عن أية لمحة ألم قد تسببها قراءة هذه الرسالة اللاذعة للبعض. وأعترف أنني حاولت أن أخفف قليلاً من الصورة القائمة التي ترسمها للحياة في قاع المدينة.. فنجحت في بعض فصولها وفشلت في فصول أخرى.

تقول كلمات الرسالة: أنا فتاة عمرها 18 سنة، أقول لك في البداية إنني لا أكتب إليك هذه الرسالة لاستعطفك أو لأثير عطف أحد قرانك، فالحق أنني لا أقبل العطف من أحد ولو كان من أقرب الناس.. وأكره نظرة الشفقة في عين أحد ولو كان قريباً مني. لكنني أكتب إليك هذه الرسالة لأروي لك قصة حياة لناس قد لا يعرف بعض قرانك الكثير عن حياتهم، وقد لا تلتقون بهم كثيراً وسأروي لك كل شيء بصراحة مهما كانت جارحة أو مثيرة للفرق.. وأرجوك ألا تحس بالغثيان وأنت تقرأ بعض تفاصيل حياتي. لقد عرفت الفقر منذ طفولتي.. وعاشرت المرض منذ تفتحت عيني للحياة فقد ولدت في غرفة مظلمة لا ترى النور ولا تعرف الماء.. وترعرعت كما يقولون في وسط محروم من كل شيء يضيء بلمبة الجاز ويشرب من ماء الطلومبة ومضت طفولتي بطينة.. لكن عن أي طفولة أتكلم.. إن أمثالي لا يعرفون الطفولة التي يتحدث عنها الآخرون.. لذلك فسأروي لك بعض لمحات من هذه الفترة التي أسميها طفولتي! لم أعرف في طفولتي كلها سوى قماش الدمور الرخيص رداء خارجياً وداخلياً في نفس الوقت.. لم ألبس طوال طفولتي فستاناً مما تلبسه الصغيرات لا جديداً ولا مستعملاً مما تخلعه بعض الأسر على أطفال الفقراء، لم آخذ في حياتي قرشاً أو نصف قرش في يدي عند الذهاب إلى المدرسة كما يفعل الأطفال.. وستسأل: وهل دخلت المدرسة فأقول لك نعم دخلتها رغم كل هذه الظروف، فأبي المكافح العامل في أحد المصانع قد حرص على تعليمي أنا وإخوتي الأربعة.. أملاً أن يجنبنا مصيره هو.. وفي المدرسة كنت أرى الأطفال يشتررون المصاصة ويمصونها فيتحلب ريقها ولا أستطيع شراءها.

ورغم كل ذلك مضت بنا الحياة ونحن نقاوم أبي وأمي وأنا وإخوتي، ثم تدهورت بنا الأحوال، وفقدنا غرفتنا المظلمة في انهيار المنزل، واضطررنا للسكن في بدروم عمارة تمليك مكونة من 10 شقق. بلا أجر ندفعه مقابل خدمة سكان العمارة كلهم، والقيام بأعمال بواب العمارة، وتصورنا أن متاعبنا قد انتهت لأن البدروم أوسع من الغرفة. لكن ما لقيناه وما زلنا نلاقيه كان أشد وأقسى.. خمسة أولاد ثلاث بنات وولدان أنا أكبرهم في المدارس جميعاً، مطلوب منهم النجاح واجتياز عقبات المجموع للاستمرار في التعليم المجاني، لكن كيف يذاكرون دروسهم وهم جميعاً في خدمة سكان العمارة في أي وقت، من الليل أو النهار.. روعي هاتي عيش، أكنسي السلم، اغسلي العربية، هاتي المكواة وصدقني إن هذا ما يحدث طوال النهار بلا مبالغة.. فكيف نذاكر دروسنا وكيف نجيب المجموع المطلوب؟ ورغم كل هذا العذاب فقد واصلت دراستي وحصلت على دبلوم التجارة لكن أختي رسبت.. وأخي على وشك الرسوب هذا العام لنفس السبب وحين أفكر فيها يحدث لنا أسأل نفسي وماذا يستطيع أبي وأمي أن يفعلوا؟

إنهما يغالبان الفقر والمرض والظروف القاسية بلا هوادة.. إنني أتعذب حين أرى أبي عارياً نازلاً في بالوعة المجاري لكي يسلكها في عز الليل، والناس نائمون والدنيا تمطر.. لأننا عاجزون عن النوم لأن مياه المجاري طافحة وبللت المراتب التي ننام عليها.. لقد زارتنا كل أمراض الدنيا.. بسبب الحياة مع المجاري في بدروم واحد.. وتلظنا بين العيادات الخارجية للمستشفيات المجانية.. والمستوصفات الخيرية نتعالج بالمزيج والحديد والزرنيخ.. وقاومنا الأمراض.. فنجونا من بعضها.. واستقر فينا بعضها الآخر.. وأنا شخصياً بقي عندي من الأمراض مرضان جليان هما المرارة.. والتبول اللا إرادي أثناء الليل أسفة لأن أقول ذلك بلا خجل لكن هذه هي حياتنا.. ورغم كل ذلك لانعدم من يؤدي مشاعرنا بجهل أو بحماقة.. فأنا مثلاً قد أسمع وأنا ماشية في الطريق واحداً معدوش دم يقول لي أهلاً يا بوابة! وأخي وأختي رغم صغر سنهما حاولا الانتحار بسبب كلام زملائهما لهما في المدرسة، بسبب فقرهما وعملهما في خدمة السكان، وكل ذلك بسبب البدروم اللعين صحيح أن راتب أبي الآن كويس لكن من أين يأتي بخلو رجل لغرفتين في أي مكان.. أما أنا فلقد حصلت على الدبلوم وجلست في البدروم بلا عمل ومفيش فلوس راضية تيجي أبداً، كأن بيننا وبينها عداً مستحكماً ونحن جميعاً إخوتي وأنا نمضي النهار بطوله دون أن نمسك عشرة قروش نستطيع أن نشترى بها شيئاً خاصاً لنا وسأكون صريحة معك، على الرغم من أنني لا أعرفك. كلما ضاقت بي الدنيا فكرت في الطريق الخاطئ لأية فتاة لأقذ نفسي من هذه الحياة لكنني أراجع نفسي وأقول لها إن الشرف هو أعلى ما أملكه فكيف أضحي به؟ وفي النهاية أقول لك إنني أقرأ في بابك رسائل لفتيات يشكين هموماً تبدو بالنسبة لي ثانوية.. أو دلماً لا يستحق الوقوف عنده، وأحس أحياناً عندما أقرأ رسالة من هذا النوع أنني أريد أن أمسك بشعر كاتبة هذه الرسالة وأن أجريها إلى بدرومنا لترى الهموم الحقيقية التي يعانيتها البشر.

لعلها ترضى عن حياتها وتترك لنا نحن أن نكتب لك.. نفضض معك بلا أي أمل في الحل عن بعض همومنا والسلام عليك؟



ولكاتبه هذه الرسالة أقول:

وأجد نفسي أقول لها بلا وعي وأنفاسي مبهورة من ملاحقة عباراتها التلقائية اللاذعة بل السلام عليك، أنت يا صديقتي فأنت التي تستحقين الإعجاب لسمودك وقوة احتمالك، وقبل كل شيء لرفضك الانسياق وراء وساوسك. ولقد أدركت جوهر المسألة حين عرفت أنك إذا أقدمت على ما فكرت فيه فإنك بذلك تكونين قد أهدرت رحلة كفاحك المريرة هذه ورحلة كفاح أبيك البطل في تربيتك وتعليمك رغم الأهوال... أنت من هذه الناحية تستحقين كل الإعجاب وتستحقين أن تفخر بصداقتك أي فتاة كريمة... يبقى بعد ذلك... أن أقول لك إنك رغم كل المرارة والألم لست وحدك فيما قاسيت في طفولتك وفيما تقاسين الآن.. ولربما كان هناك من قاسي الأهوال أكثر مما قاسيت، وأنت رغم كل ذلك مازلت في بداية حياتك ولا بد أن تأملي في أن تكون الفصول التالية أكثر إشراقاً، وأقل معاناة، فنحن لا نستطيع يا صديقتي مهما بدا الطريق أمامنا صعباً أن نكف عن الأمل أو أن نتوقف عن محاولة اختراق السدود وقفز الحواجز.. فلا بد أن نأمل دائماً في غدٍ أفضل وإلا أصابنا الجنون، واستسلمنا لليأس والإحباط. لا بد أن نأمل دائماً في المستقبل مهما بدا الحاضر عقيماً وغير مبشر بالآمال.. إنني لا أخدرك بالأمل.. لكنني أدفع عنك اليأس والإحباط وهما بوابة الشيطان إلى عقل وقلب الإنسان لا بد أن ننظر إلى الأمام دائماً بوجه مبتسم حتى ولو ظن بنا البعض البله، فالأمل هنا دفاع عن النفس ضد الجنون وضد شرور عديدة.. وليس استغراقاً في الوهم والأحلام وتذكري دائماً أن أكثر لحظات الليل سواداً هي اللحظات التي تسبق مباشرة ظهور أول ضوء في الفجر، لذلك فإنه لا بد أن يحين فجر يوماً ما وسوف يحين بكل تأكيد، في يوم قريب ربما كان أقرب كثيراً مما تتصورين.



رسالة من معيدة شابة

كأني أثرت أشجان كثيرين حين قلت في تعليقي على رسالة فتاة قاع المدينة الأسبوع الماضي لها إنك لست وحدك وإنه ربما كان هناك من قاسى ويقاسى أشد مما قاسيت، فقد انهالت عليّ رسائل المعذبين في الأرض تروي لي قصص حياتهم وتحاول أن تخفف آلام كاتبة الرسالة بأن تروي لها طرفاً من معاناتهم، لكن من بين هذه الرسائل العديدة التي تعاطفت مع كاتبة الرسالة وتمنت صداقتها توقفت طويلاً أمام هذه الرسالة التي أرسلتها إليّ قارئة عظيمة أدعوكم لقراءة رسالتها معي:

استأذنتك في البداية في أن تزيد عدد (أصدقاك على الورق) كما تسميهم، صديقة جديدة هي أنا كما استأذنتك أيضاً في أن أكون صديقة لكاتبة رسالة فتاة من قاع المدينة التي نشرت في الأسبوع الماضي، فأنا أيضاً ظروفى تماثل ظروفها. لكني بحكم عملي لا ينطبق عليّ وصف قاع المدينة، وإن كنت أنتمي فعلاً إلى سكان القاع خاصة بعد أن انقلبت أوضاع المدينة وأصبحت قمتها في قاعها.. وقاعها فوق القمة.. لكن هذه قصة أخرى!

والواقع أنك ستدهش قليلاً أو كثيراً حين تعرف عملي فأنا يا سيدي معيدة بإحدى الكليات المرموقة وعمرى 26 سنة.

وعلى الرغم من كفاحي العلمي وكفاح أبي وأمي في الحياة فما زلنا في قاع المدينة سكنا وواقعاً. لكني أحمد الله أنه على الرغم من واقعي الذي يشبه واقع فتاة القاع ما زلت عندي الرغبة في العمل والعطاء بلا حدود، كما أنني ما زلت ممتلئة بالأمل والتفاؤل رغم كل شيء. وأسمح لي أن أوجه تحياتي مباشرة إلى كاتبة الرسالة فأقول لها إنني مثلك عرفت الفقر منذ طفولتي وترعرت في الوسط الذي يضيء بلمبة الجاز ويذاكر دروسه على الطبلية حتى ينقصر ظهره لكني على عكسك كلما تذكرت هذه الطفولة شعرت بالسعادة لأنني تغلّبت على الآمها ومشاكلها والحق أن أبي وأمي كانا دائماً لي النور الذي اهتدي به، وعندما أنظر إلى الحياة التي ارتضيها لأنفسهما ليسعدا أبناءهما، أشعر أن كل الآلام قد ماتت وأحس بالرغبة في بذل المزيد من الجهد والكفاح، لأحقق نجاحاً أكبر أسعدهما به.

فأبي مثل أبيها عامل مكافح ما زلت أقبل يديه كل يوم عرفاناً لكل ما بذله من أجلي، حتى كان يحرم نفسه من كوب الشاي مع أصدقائه مع وزملائه في العمل، لكي يوفر لي نفقات التعليم، ولأنني كنت أعرف ذلك وأنا طفلة صغيرة فقد حرمت على نفسي مجرد النظر إلى المصاصة في أيدي الأطفال في المدرسة، رغم كل ذلك مضت بنا الحياة ونحن نقاوم أنا وأمي وأبي وإخوتي الثلاثة الآخرون.

فكرت كثيراً وأنا طفلة أن أترك الدراسة وأعمل بالخياطة، لكي أوفر المشاق على أهلي وتخيلي أن تحملي طفلاً صغيراً مسؤولة التفكير في مستقبله ولو كنت اخترت مهنة الخياطة، لكنت الآن في قمة المدينة وليس في قاعها، ولكن ماذا كنت أفعل وقد كنت متفوقة رغماً عني في الدراسة؟ هكذا ولدت ما إن أمسك كتاباً

وأقرأه حتى أعياه وأفهمه وأتفوق على أقراني فيه، وأغراني هذا التفوق حتى وصلت إلى ما أنا فيه ولكني مازلت في قاع المدينة، لأن التفوق ليس من مبررات الصعود لقمة المدينة، ثم تطورت بنا الحال من السكن بالغرفة المظلمة القديمة إلى السكن في بدروم عارة، وأقول لك تطورت لأني أيامها كنت في الحادية عشرة من عمري، واعتبرت أن ذلك تطوراً فرحت به، وما زلت لا أعترض على هذا المكان ولكن مرض والدي ووالدتي أعز الأعراف علي قلبي بالروماتيزم، هو ما جعل قلبي يعترض، ثم ما لبث أن اعترض عقلي أيضاً، وعندما قرأت رسالتك اعترض لساني.

ففي هذا المكان الرطب الذي تتفتت حوائطه من الرطوبة سأفقد أحب مالي في هذه الدنيا، وعندما تنسد ماسورة المجاري هل تعلمين كيف يصلحونها، إنهم يفتحون الماسورة من المنور الذي تطل عليه حجرتانا والمطبخ. وعندما تنفتح المواسير ينزل ما بها على فراشنا وعلى طعامنا، وتبكي العزيزة الغالية أمي وهي ترمي بالطعام وترفع الأوساخ عن الفراش.

إن ما يؤرقني هو كيف أسعد والدي وأن أرفعهما من هذا المكان إلى مكان آخر به شمس وهواء، حتى أريحهما من العذاب الذي يعانيانه. إن نظرات اللوم أراها كل يوم في عينيها.. وماذا بعد أن أصبحت في هذا المركز أما أن لنا أن نستريح؟ وأريد أن أقول لها هناك فرق كبير بين العلم والمال. أنا أملك العلم وعندي طاقة كبيرة للعمل العلمي ولكن ليس هذا هو الطريق للمال، أي أنني مثلك يا فتاتي " مافيش فلوس راضية تيجي أبداً. كأنها تكرهنا "! وأقول لك الحق إنني لست حريصة عليها لنفسني ولكن من أجل أمي وأبي.

منذ أيام كان عيد الأم ورجعت المنزل فوجدت أمي تبكي وتطلب من الله أن ينعم عليها بشقة بعد أن رأت أن حائط إحدى الغرف قد تهدم من الرطوبة، إنه يحتاج إلى إصلاح جديد، على الرغم من أننا قمنا بإصلاحه من فترة قصيرة، ولم أملك إلا أن أمسح دموعها ببدي، فماذا قدمت لها بعد هذا الحرمان؟ وهل تكفي الجنيئات التي أقبضها في المساهمة في المعيشة الغالية وفي كتبي ومواصلاتي وملابسي ومساعدة أبي على متطلبات الحياة؟ ماذا قدمت لهما حتى يشعرا بثمرة تعبهما؟ إن الحصول على شقة لهما يحتاج إلى وقت طويل جداً ربما أكثر من عمري، فهل سيعيشان حتى أرد لهما جزءاً ضئيلاً من جميلهما، إن هذه الفكرة تعذبني وتبكييني كيف ومتى أحقق لهما حلمهما؟ إن أمامي طرقاً كثيرة ملتوية لا أقول إنني سأؤذي نفسي بالاحراف فقد تربييت على الدين والفضيلة، ولكن أمامي أن أعطي دروساً خصوصية وهذا سوف يؤذي غيري ولكن نفسي تأبى إلا الحلال، وصدقيني يا صديقتي أنني لا أستطيع أن أسلك أي طريق غير طريق الحلال.

هناك حل آخر ولكنه ليس ببدي، إنه بيد واهب الحياة والموت.. هذا الحل أن تقوم الجامعة بصرف مكافأة وفاتي، وذلك بعد أن أموت فيقوم والدي بدفع خلو لشقة من هذه المكافأة، ولكن هل يملك الإنسان لنفسه النهاية؟ هذا آخر ما فكرت فيه! إذا كيف أمسح دموع أمي يوم عيد الأم وأن أقدم لها هذا الطلب المستحيل؟.

لقد انتهيت من الكلام مع صديقتنا فتاة قاع المدينة، والآن أشكرك على الرد الذي رددته عليها، فأنا مثلها لا أريد أن أهدر رحلة كفاحي المريرة ورحلة كفاح أبي وأمي وإخوتي حتى ولو بتصريف أوجل أن أتفاخر به أو أذكره أمام الناس، نعم لست وحدي التي أعاني وربما هناك مآس أكثر مما أنا فيه، ولسوف أصبر مادام في الدنيا أناس شرفاء طيبون يقدمون يد المعونة إلى غيرهم، سواء بالقول أم العمل وأنا أؤيدك في أنه لا بد أن ننظر للإمام دائماً بوجه مبتسم، حتى ولو ظن بنا البعض البله. وعلى الرغم من إيماني بكل ما قلته وعلى الرغم من تصميمي على العمل بها فيه، يبقى سؤال يلح في خاطري: كيف أسعد والدي ووالدتي قبل أن تحجبهما عني الدنيا أطل الله في عمرهما؟.

توقيع.....

ملحوظة: آسفة لأنني لم أوقع باسمي الكامل لكنني على استعداد لكتابته إذا قبلت ضمي إلى قائمة أصدقائك على الورق.



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

هذه هي الرسالة التي توقفت أمامها طويلاً وأحسست باحترام شديد لكاتبته، ترى كم من الناس من نحس تجاههم بمثل هذا الاحترام؟ إنني أكاد أشعر من بين سطور هذه الرسالة أن كاتبها طبيبة تعالج آلام البشر وتعود مرضى سكان العمارة والذين يلقون على أهلها بالنفائيات من نوافذ المطبخ، ومع ذلك فهي لا تتخلى عن واجبها في زيارة مرضاهم وعيادتهم، أليس هذا مبرراً آخر للاحترام. ثم كيف لا أتوقف طويلاً أمام هذه النفس الشفافة الخالية من المرارة ومن العقد تجاه الآخرين رغم الكفاح والآلام، أو أمام هذه النفس المحملة بالأمل والتفاؤل وبالرغبة في العطاء والعمل والكفاح رغم الظروف غير المواتية.

وماذا يدعو للاحترام وللإعجاب والحب أكثر من أن تكون مشكلة هذه المعيدة أنها عاجزة عن رد الجميل لأبيها المكافح وأمها؟ لأن هناك فرقاً بين العلم والمال ولأن تفوقها العلمي لا يحقق لها إمكانية الحصول على شقة فوق سطح الأرض أى وفاء وأي عظمة؟ حسبت أنك ستقولين لي إنك مشغولة بالحصول على شقة لنفسك أو إنك مشغولة بالحصول على فرصة ملائمة لزواج لائق، لكنك كنت أفضل كثيراً من أي توقع، تحسين بالقهر وبالعجز عن تحقيق أمنية الشقة لأبك وأبيك وتساأليني كيف تردين لهما ما قدماه فإذا أقول لك؟ هل أقول لك إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأنت تردين لهما الكثير بالتزامك الطريق السليم في حياتك، وبرفضك للخطأ ولكل مال غير حلال، أليس في كل ذلك ما يرد لهما صنيعهما؟ وأنت أكبر ثروة يمكن أن يحققها والداك في رحلة حياتهما؟ إنني مع ذلك لست متشائماً فلعل في ظروفك ما يضعك على أول الطريق الطويل للحصول على شقة فوق الأرض، بخلو معقول أو في المساكن الشعبية بعد انتظار مهما طال فهو محقق للآمال في النهاية.

يا أنستي إنني أشكرك على رسالتك وأرحب بصدافتك وأتشرف بمعرفتك.. وأشعر أنني قد ازددت تعرفاً على الجانب الخير من الحياة بعد قراءة رسالتك القيمة هذه.

أما فتاة القاع التي كتبت عنها في الأسبوع الماضي فقد تلقيت بشأنها استجابتين بشأن مشكلتي العمل والعلاج إحداهما من أستاذ جامعي صديق قديم لبريد الأهرام، لذلك فإني أدعوها للاتصال بي لحل مشكلتيها.. وإلى اللقاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



سفينة الحياة

أكتب إليك هذا الرسالة وأنا طريح الفراش. فلقد أتاح لي المرض فسحة من الوقت فكتبت لك بضعة سطور عن تجربتي في الحياة، قد تكون مرشدة لمزيد من الأمل والتفاؤل للمعيدة الشابة التي نشرت رسالتها تعليقاً على رسالة في قاع المدينة التي نشرت رسالتها منذ أسبوعين، وأنا بالمناسبة لست طريح الفراش بمرض خطير ولكن بنوبة انفلونزا.. تدعوني ظروفى الخاصة للاحتراس من مضاعفاتها..

ولن أقول لك في البداية من أنا.. ولا ماذا أعمل.. لكنى سأقول لك في البداية ولهاتين الفتاتين إنني نشأت في ظروف معيشية لا تختلف كثيراً أو قليلاً عن ظروفهما، لكنها تزيد عنهما صعوبة في أنني اكتشفت وأنا طالب جامعي في ريعان الشباب أنني مريض بروماتيزم القلب، وقد أشارت كلتا الفتاتين إلى خوفهما من الروماتيزم بسبب سوء أوضاع المسكن الذي تعيشان فيه، وهما محقتان في ذلك، لكنه ليس نهاية الدنيا كما ستؤكد لك قصتي بعد حين.. ففي ذات يوم ما زلت أذكره حتى اليوم اكتشفت إصابتي بمرض القلب المزمن وكان أحد أيام عامي الثالث في الجامعة، وكنت قد سافرت من القاهرة إلى طنطا حيث إدارة التجنيد التي أتبعها لإجراء الكشف الطبي.. وستسأل لماذا أسعى إلى التجنيد في العام الثالث من الجامعة قبل أن تنتهي دراستي فأقول لك إن الدافع لذلك كان الرغبة في دخول الجيش قبل انتهاء الدراسة لكي تنتهي فترة التجنيد مع انتهاء الدراسة فأحصل على شهادة إتمام الخدمة مع الشهادة الجامعية في يوم واحد، وبذلك تتاح لي فرصة الحصول على عمل في أسرع وقت لحاجتي الشديدة إلى العمل.

فلم يكن تعليم الأبناء في أسرة والدي بالشيء المرموق في ذلك الوقت، لذلك كان سعيه الدائم وبكل الوسائل الكريمة وغير الكريمة إلى دفعي للعمل وترك الدراسة، ومن هنا نشأت لدي فكرة دخول الجيش لأوفر عليه بعض نفقاتي، ولأقصر المسافة إلى العمل بعد التخرج، فحملت حقيبتي التي تضم كتبى الجامعية وسافرت إلى طنطا، ففوجئت وعلى غير المتوقع برفض تجنيدى.. وفوجئت بدلاً من إلحاقى بالخدمة العسكرية بشهادة إعفاء نهائي من التجنيد سألت في دهشة: لماذا؟ قالوا لأنك مريض بتليف الصمامات من أثر روماتيزم القلب الذي أتلّف الصمامات وأصاب عضلة القلب بالتضخم.. عدت من طنطا مهزوماً كمن خسر كل شيء وسدت أمامه كل الأبواب فهذه الشهادة اللعينة قد سدّت أمامى باب العمل بالشهادة الثانوية، وبدأت الهواجس تتسلط عليّ كيف أستطيع مواصلة دراستى الجامعية وأين أجد العلاج الطبى السليم لحالتى الصحية؟ ومن أين أجد تكاليفه؟

وعشت أياماً لا أعرف النوم، وزادت حالتى النفسية سوءاً حين ظهر عبد الحليم حافظ في نفس الفترة في فيلم أظن أن اسمه كان "يوم من عمري" يؤدي فيه دور شاب مريض بالقلب يموت في نهاية الفيلم رغم سفره للخارج ورأيت نفسى كثيراً في صورة هذا الشاب.. وأن كنت لا أستطيع السفر إلى الخارج للعلاج.. ومضت الأيام وأنا أعيش هذه الصورة وهذه الهواجس حتى أسودت الدنيا أمامى.. ثم تداركت نفسى بعد قليل حين أدركت أنني لم أعد بانهياري هذا أوذي نفسى

وصحتي فقط وإنما أؤدي أيضا أبي وأمي اللذين أصبح الدعاء المفضل لهما منذ ذلك الحين هو أن يختارهما الله قبل أن يختارني.. ومن المؤسف حقاً أن أمنيتهما قد تحققت فرحاً منذ سنوات قليلة وكنت في ذلك الوقت خارج مصر.

واستجمعت إرادتي وسلمت بإرادة الله.. وسلمت إليه أمري.. وأرجعت إليه كل شيء ووضعت لنفسي دستوراً نفذته بأمانة هو أن أعمل وأعيش ليومي فقط، وأن أترك الغد لمشيئة الله ولإرادته، فكان من نتائج إيماني بهذا الدستور أنني عشت عقب اكتشاف المرض أكثر من ربع قرن حتى الآن انتهت بحصيلة ذاخرة بنعم الله هي:

- استكمال دراستي الجامعية ثم دراستي العليا إلى حد شغل درجة الأستاذية الكاملة في الجامعات الأجنبية والجامعات المصرية.

- تأمين الضمانات المادية لي ولأسرتي إلى حد الاطمئنان على مستقبل أبنائي دون خوف عليهم من آثار مضاعفات مرضي ونتائج.

- زرع حب العلم والدراسة في كل أفراد أسرتي بصرف النظر عن علاقة هذا العلم بعائده المادي.

- زرع النفور في قلوب كل أفراد أسرتي ممن يسلك أي سلوك يستثير به الشفقة على حالته الاجتماعية أو المادية بصفة عامة فالشفقة في نظري لا يستحقها إلا العاجزون عجزاً كلياً عن كسب قوت يومهم. وأذكر في هذا الصدد جلسة ضمنتني في بداية حياتي العملية مع زميلين راح كل منهما يروي عن معاناته وآلامه في حياته كطالب فروى الأول أنه كان يرتاد مستشفى الطلبة بصفة دائمة ليحصل على بعض الأدوية فيبيعها ليطعم نفسه من ثمنها. وروى الآخر ظروف حياته الصعبة واضطراره للعمل في مدرسة ليلية لينفق على تعليمه، وعلى إخوته البنات بعد والده. وخجلت أنا من رواية معاناتي خجلاً من مقياس المقارنة! وقد شاء الله أن يغدو هذان الزميلان أيضاً من أساتذة الجامعات المرموقين.

وقد شاعت إرادة الله أن تكون العقبة التي حالت دون حصولي على عمل في مصر، هي التي فتحت أمامي أبواب الخير في مكان آخر. فلقد أعييتني الحيل للحصول على وظيفة ملائمة في بلدي بعد حصولي على الشهادة الجامعية، فشاء الله أن أعمل في إحدى بلدان وسط أفريقيا.. وعشت سنوات عديدة فيها، تحملتها فكانت فاتحة خير عميم، وعدت بعدها إلى بلادي وتوليت فيها الوظيفة الملائمة..

هذه يا سيدي قصة كفاح حقيقي لا تتعلق بي أو ببعض زملائي وإنما أظنها تخص عدداً كبيراً من أبناء جيلي، أما قصتا الفتاتين فإنهما تتعلقان أساساً بأزمة الإسكان العامة في بلدنا، وما عدا ذلك فإن فرصة الكسب أمامهما ليست صعبة المنال كما تعتقدان فيمكن للفتاة الحاصلة على دبلوم التجارة أن تعمل في أي متجر خاص، وبراتب يبلغ ثلاثة أضعاف راتب الوظيفة الحكومية، ويمكن للمعيدة الشابة أن تعطي بعض الدروس الخصوصية في الإطار المشروع، وبالتالي فإنهما لا تستحقان في رأيي تعاطفك وشفقتك، والمهم في النهاية أن تمتلك كل منهما القدرة

على مضاعفة جهدها في الحياة العملية، أما قصة المسكن غير الملائم فهي مع
قصص أخرى في النظام الاقتصادي المنظم والإنفاق السليم والعمل على تحقيق
العدالة الاجتماعية المتوازنة لكل أبناء الوطن.

أستاذ جامعي مصري ح. أ. ج



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

تلقيت هذه الرسالة في بريدي هذا الأسبوع بين عشرات الرسائل التي ما زالت
تعلق على رسالتي فتاة قاع المدينة والمعيدة الشابة. وقد اخترتها للنشر لإعجابي
بكاتبتها رغم اختلافي معه في بعض آرائه.. وأبدأ بأسباب الإعجاب فأقول إنني
معجب به لإيمانه ومعجب به لأنه لم يجعل من مرضه المزمن مأساة تنهي حياته
وطموحه وتوقف مسيرته، وإنما آمن بأنه قدر الله وكما شاء فعل " وبأنه الذي لا
يسأل عما يفعل فتجاوز هذا الموقف إلى التفكير في حياته.. والتفكير في كيفية
اجتياز العقبات التي وضعت في طريقه، ومعجب به أنه أدرك في شبابه الباكر أن
انهياره لا يؤدي نفسه فقط ولا يؤدي إلى تدهور حالته الصحية فقط، وإنما يؤدي
أيضاً من يحبونه، فتماسك واستعداد نفسه سريعاً فكان تماسكه هو بداية انطلاقه
واستكمال مشوار كفاحه، ومعجب به لاعترافه بفضل الله عليه ولإدراكه أنه حتى
العقبات التي وضعت في طريقه كانت سبباً في خير عميم ينتظره في مكان آخر.

لكني أختلف معه في بعض آرائه وأولها أنني أشتم في حديثه رغم تقديري لكفاحه،
روح الاقتناع الساند لدى بعض الناجحين من حيث اعتبار الفقر مسؤولية الفقراء
وحدهم وليس مسؤولية المجتمع الذي يعيشون فيه أولاً، وهو تفكير يرجع أساساً
إلى عظيم احترام هؤلاء لكفاحهم مما يدفعهم للإيمان بأنه ليس من حق أحد
الشكوى مما يعانیه، وإنما عليه أن يشقى ويكافح ليحقق ما حققوه هم، وهذا سليم
في أحد جوانبه.. لكنه ليس سليماً على إطلاقه في اعتبار الفرد مسؤولاً وحده عما
يعانیه من سوء مسكن أو ظروف معيشية صعبة، متوقعين من كل إنسان أن يحقق
وحده دون مساعدة من المجتمع الذي يتحمل أمانة المسؤولية عنه، كل ما يحتاج
إليه من أساسيات الحياة، وإلا كان ذلك بمثابة دعوة للجميع للكسب من أي طريق

وبلا ضوابط، ولا أظن الاستاذ يقصد ذلك أو يرتضيه بدليل إشارته في نهاية الرسالة إلى أهمية العدالة الاجتماعية.

كذلك فإني اختلف معه في أنه يأخذ عليّ بشكل أو بآخر تعاطفي مع الفتاتين ونشر رسالتيهما، وليس لي أن اختلف معه في ذلك أيضاً فالرسالتان تلقيان الضوء على واقع شريحة اجتماعية عريضة في بلادنا. ويريد الأهرام نافذة ينبغي أن تكون متاحة لكل الآراء ولكل الأصوات، والفتاتان في رأيي تستحقان الاحترام لشيء أساسي هو تسمكها بالقيم الأخلاقية رغم صعوبة حياتهما وخاصة المعيدة الشابة لخلوها من المرارة وتفاؤلها.

وعلى أي الأحوال فإن اختلافي معه في الرأي لا يقلل أبداً من إعجابي الشديد به ولا من استفادتي من رسالته التي اعتبرها " محاضرة " قيمة في علم الحياة، محاضرة تذكرني بالحكمة التي تقول " تجربة أمتي.. تجربة علمتي " أي أن التجربة المؤلمة هي عادة التجربة التي ينبغي أن نتعلم منها وأن نستفيد منها مع تمنياتي له بالصحة واستمرار العطاء.



الطريق

أكتب إليك بعد أن تسلل النوم إلى عيون الجميع في أسرتي ما عداي.. فمازلت مسهدة أبحث عن النوم ولا يبحث عني!

وأنا يا سيدي فتاة في العشرين من عمري بدأت قصتي منذ سنوات طويلة.. وبالتحديد قبل ولادتي بشهور، فقد ولدت بين أم وأب متزوجين ومنفصلين بعد شهور قليلة من الزواج بلا طلاق، ففتحت عيني على الدنيا في بيت أسرة أمي.. ووجدت كل شيء متاحا لي باستثناء شيء واحد فقط وهو أبي!

فنحن أسرة ثرية وأبي كذلك، لكن الأقدار شاءت ألا يتوافق العروسان الجديان بعد شهور قليلة من الزواج، فعادت أمي إلى بيت أسرتها واستمرت الحال هكذا إلى أن ولدت. وبعد ولادتي مرت 4 سنوات وفشلت خلالها كل محاولات الصلح بينهما وقرر أبي أن يسافر للعمل في الخارج.. ويبدو أنه أراد أن يراني قبل سفره فجاء إلى البيت ودفعوني إليه ففزعت ولم أعرف عليه كما قيل لي حين كبرت، ثم رحل الأب إلى أوروبا وكبرت أنا في رعاية أمي ودخلت المدرسة وبدأت أفهم أشياء كثيرة.. وبدأت أحس بحنين غريب إلى رؤية أبي الذي لا أتذكر شيئاً من ملامحه.

وبدأت أحلامي تتركز في أن أراه ولم يعد يشغلني في الحياة شيء أهم من أن أرى أبي وأن أحتفظ به فلا أسمح له بالسفر مرة أخرى.. أما هو فلم يتذكرني سوى خلال العامين الأولين من اغترابه فكتب إلي عدة بطاقات وأنا طفلة صغيرة مازلت أحتفظ بها حتى الآن، وحين بلغت الخامسة عشرة حدثت لي مفاجأة زلزلت كياني.. فلقد ذهبت لزيارة بعض أقاربي بالمصادفة فاستقبلوني بترحاب غير عادي ووجدت لديهم ضيفاً فخم الهيئة والملابس والجميع يرحبون به باحترام شديد.. ووجدت نفسي بلا إرادة أنجذب إليه وأشارهم الاهتمام به بلا سبب واضح ووجدتني أرقبه طويلاً في اهتمام وشوق.. ثم قال لي أحد أقاربي فجأة مشيراً إلى هذا الرجل المهم تقدمي وقبلي أباك يا منى! وتزلزل كياني.. يا إلهي أهذا إذن هو أبي الذي أحلم به كل ليلة.. أهذا أبي الذي أتخيله يوماً شاباً ويوماً كهلاً.. وبديناً مرة.. ورشيقاً مرة أخرى؟.

وخلال لحظات كنت قد استوعبت المفاجأة ووجدتني أضحك بهيستيرية ثم أصرخ وأبكي ثم أضحك مرة أخرى ثم أقفز إلى أحضانه وأغرقه بالقبلات في كل مكان واختبئ في حضنه مغمضة العينين ودموعي تنساب من بين رموشي والجميع يبكون في صمت.. والعجيب يا سيدي أنني لم أعاتبه لأنه أهملني كل هذه السنوات أو لأنه فارقتي وأنا ابنته الوحيدة كل هذه السنين وإنما أحسست أنني قد ملكت الدنيا وأنا معه ولا أريدها أن تضيع مني مرة فأمسكت به من ملابسه وقلت له لن أدعك تضيع مني مرة أخرى، أنت تعلم أننا لسنا في حاجة إلى مال لكنني في حاجة إليك أنت فلا تتركني مرة أخرى يا أبي. ولم أتركه بالفعل إلا وهو يعود معي إلى بيت الأسرة الذي أعيش فيه مع أمي.. زوجته التي لم يطلقها حتى الآن، وكانت

أياماً سعيدة مضت كالأحلام ثم سافر إلى أوروبا مرة أخرى على وعد بالانتقطع
صلته بنا بعد ذلك أبداً مهما غاب عن مصر، ومن أوروبا أرسل لي كل ما تحلم به
فتاة في سني وراسلني.. وحادثني في التليفون كثيراً وجاء إلى مصر بعدها عدة
مرات وفي كل مرة تتكرر السعادة وتتكرر الأحلام وأصبح أبي هو كل حياتي،
وحيث كان يأتي كنت أتوقف عن شيء حتى عن دراستي في الكلية العملية التي
التحقت بها ونقضي نهارنا في حديث مستمر ونزهة لا تنقطع. ومرت الأيام وهو
مستمر في سفرياته وتنقلاته يذهب ويعود إلى أن جاء يوم حدث فيه احتكاك لا
داعي لذكر تفاصيله بينه وبين أحد أقاربي فاشتعلت نار لا أعرف من أين جاءت
فثار ومزق صورتنا الوحيدة التي تجمع بيني وبينه وبين أمي ثم حمل حقائبه
وهجرنا مرة أخرى بغير أن يترك عنواناً أرسله عليه وبغير أن يتيح لي فرصة
رؤيته وإطفاء النار المشتعلة.

واختفى أبي مرة أخرى من حياتي وكأنه لم يكن، ومضت الأيام ثقيلة وأنا في
انتظاره ثم سمعت ذات يوم وكان قد مضى عام طويل على آخر لقاء معه، أنه قد
جاء إلى مصر وزار مدينتي الإسكندرية ولم يحاول أن يراني أو يخاطبني
بالتليفون لأطير إليه حيث يكون.. فانهرت فجأة ومددت يدي إلى علبة الأقراص
المنومة وابتلعت كل حبوبها.. وأنفذني الأهل.. تعذبت كثيراً خلال عملية إنفاذي..
أما هو فقد سافر واختفى في الدنيا الواسعة، إنني أكتب إليك هذه الرسالة لأطلب
منك أن تدلني على طريق أعرف به عنوان أبي لأن أقاربه لا يعرفون له عنواناً أو
حتى مقر إقامة فهو ينتقل بين تونس وفرنسا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا
ويوغسلافيا والنمسا وهولندا، وقد دخت بين السفارات والقنصليات فلم أتوصل
إلى شيء. وأرجوك أن تبحث معي عن أبي لأني واثقة أنه إذا رأيته ورأيتته سوف
ننسى كل شيء وأرجوك إذا عرفت عنوانه أن تقوم بالتوفيق بين ثلاثة قلوب
حطمتها الأيام لتعود إلينا السعادة وأرجوك أخيراً ألا تنصحي بأن أكيف حياتي
على ما هي عليه الآن لأني لست على استعداد لذلك.

منى..



ولكاتبه هذه الرسالة أقول:

إنني بالرغم من أنني لا أعرف على وجه التحديد كيف أستطيع أن أساعدك في العثور على أبيك.. ولا كيف أستطيع أيضا أن أوفق بين ثلاثة قلوب حطمتها الأيام كما تقولين، فإني لا أملك سوى أن أحاول إذا تلمست الطريق إلى ذلك وعلى المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح، فأما العثور عليه فلا أمل فيه سوى أن يقرأ قصتك هذه بعض قراء الأهرام في هذه الدول فيعرضون مشكورين التطوع للبحث عن أبيك في الدول التي يقيمون فيها، لذلك فإني أرجو أن تكتبي إلي باسمه الكامل وبأسماء المدن التي يرجح أن يزورها وسأبعث بهذه البيانات إلي من يطلبها مني من قراء البريد، وأما التوفيق بين القلوب الثلاثة فيتوقف أولا على التوصل إلى أبيك وفي هذه الحالة فإن رسالتك وحدها ستكون أبلغ من أي كلام يمكن أن يقال في هذا الصدد، ولو أتيت لي أن أتصل به فلن أفعل أكثر من أن أقدم له رسالتك وأن أقول له يا سيدي إن من "البطر" أن يكون للإنسان مثل هذه الابنة المحبة بل المدلّهة بحبه ثم يقطع ما بينه وبينها مهما كانت الأسباب.. ومهما كانت الظروف.. بل ومهما كانت المسؤوليات الجسام التي تتحملها.. حتى ولو كنت تدير شئون الكون كله من عواصم العالم! وسأقول له أيضاً إن هناك أشخاصاً بلغوا قمة النجاح، لكن نجاحهم لا يساوي في نظرهم شيئاً لأنهم محرومون من كلمة حب صادقة من أبنائهم، كهذه الكلمات التي تنسجها لك من ذوب قلبها ابنتك الشابة، ولو خيرت بعض هؤلاء الأشخاص بين نجاحهم وبين كلمة حب مخلصه من ابن عطوف أو ابنة صادقة الحب لباعوا الدنيا وما فيها بمثل هذه المشاعر الإنسانية.. بل إنني سأقول له أيضاً إنني أعرف آباء قدموا لأبنائهم الكثير وما زالوا وبالرغم من ذلك فقد يتسولون منهم الحب والاهتمام والرعاية فلا يجدونها لديهم.. فلا تكن كفوراً.. جاحداً لنعمة ربك ولا تذكرنا من جديد بشخصية "الرحيمي" بطل قصة الطريق لأستاذنا نجيب محفوظ "الذي يلهو فوق الكرة الأرضية ناسياً وراءه ابنا لا يعرفه" فلقد ظننت أنها شخصية خيالية لا تتكرر حتى تلقيت رسالة ابنتك فعرفت منها أن الواقع كثيراً ما يكون أكثر غرابة من الخيال!



في إشارة المرور

اسمح لي في البداية بأن أعرفك بنفسي: فأنا يا سيدي طبيبة وأستاذة جامعية ناجحة في عملي وفي حياتي الاجتماعية، محبوبة والحمد لله من كل من أتعامل معه في مجال عملي أو علاقتي الاجتماعية. وزوجي أستاذ وطبيب ناجح جداً ونايغة في مجاله كما أنه شخصية اجتماعية ناجحة ممتازة ومحبوبة جداً من كل من يتعامل معه. وقد تزوجنا بعد قصة حب عنيفة خلال دراستنا في كلية الطب، واختار كلانا الآخر عن حب واقتناع، وبدأنا طريق الكفاح لنبدأ حياتنا معاً ولنستكمل دراستنا العليا.. فبنينا عشاً جميلاً وأنجبنا ولدين، وسافرنا في بعثة إلى الخارج للحصول على الدكتوراه.. وعدنا معاً إلى مصر فتسلم كل منا عمله المرموق وبدأ هو يبني مكانته وشهرته وبدأ بتجهيز عيادة أشرفت على كل ورقة في تأثيثها لكي يتفرغ لمشاغله العديدة. وبدأ حياته العملية ووصل خلال سنوات معدودة إلى نجاح كبير..

ومن حقت أن تسألني بعد ذلك أين هي المشكلة في كل ما تقولين، فأقول لك إن زوجي المحبوب رجل له فلسفة خاصة في الحياة وهي أن الزواج نظام اجتماعي فاشل، وأن الأبناء مسؤولية لا مبرر لها.. وأن من حق الرجل أن يعيش مرة واحدة لا مرتين وبالتالي فقد أعفى نفسه من كل مسؤولية تجاه زوجته وابنيه ماعدا وجهها واحداً من وجوها هو المسؤولية المادية فقط.

والحقيقة أن القصة لها جذور عميقة.. فقد اكتشفت بعد زواجي بثلاثة أعوام أن زوجي رجل " فراشة "، يجب أن يطير من زهرة إلى زهرة ليرشف رحيقها ولا يرى في ذلك عيباً أو إخلالاً بمسؤوليته تجاه زوجته، وقد اكتشفت أولى نزواته بعد ثلاث سنوات من الزواج واستمرت عاماً كاملاً عاد إلى بعدها تائباً ونادماً. ولكن أي ندم وأي توبة؟ فبعدها سافرنا للخارج وهناك تكررت نزواته طوال سنوات البعثة. وصبرت متصورة أنه كما يقولون طيش شباب سيفيق منه بعد حين. لكن المشكلة استمرت بعد ذلك إلى ما لا نهاية فهو يخرج من نزوة إلى نزوة.. وخلال كل نزواته يبتعد عني تماماً إلى أن تنتهي فيعود لكننا لم ننفصل خلال هذه المرحلة كلها، فقد كان يكتفي بأن يتجنبني إلى أن تزول الغمة.. فأفرح بعودته إلي وأغفر له كل ما صنع وأتوقع أن يعوضني الله خيراً عما فات إلى أن كانت النزوة الأخيرة فقد عرف زوجي - سامحه الله وغفر له - زميلة له في مجال العمل تقف بينه وبينها حوائل عديدة لا داعي، للإشارة إليها. واستغرق في قصته معها إلى آخر مدى، واحترم الرجل " تقاليد " معي في مثل هذه الحالة فابتعد عني تماماً، فصبرت عسى أن يفيق من غيه.. لكنه على العكس من ذلك أقدم على خطوة لم يقدم عليها من قبل وهي ترك البيت نهائياً، واستأجر شقة بعيدة وبدأ في تأثيثها ليحيا فيها منفرداً، ليتفرغ لحياته الجديدة.. فأصبحت بذلك لا أراه إلا مصادفة حين تجمعنا إشارة المرور هو في سيارته وأنا في سيارتي وكلانا في طريقه إلى عمله.. وبالرغم من كل ما صنع بي فإني في كل مرة أجدني البائدة بتحيتها، فيرد

التحية باقتضاب، ثم ينطلق بسيارته في الزحام.. وأما أنا فأقود سيارتي والدموع تنساب من عيني.. وأدخل المدرج لأدرس لطلبتني وأنا في أسوأ حال.

حاولت مناقشته فرفض مبدأ المناقشة قائلاً لي قد انتهينا ولا مبرر لإطالة الحديث في هذا الموضوع.. طلبت منه أن يحاسبني عن أخطائي إذا كنت قد أخطأت في حقه فرفض، طلبت منه أن يصبح أصدقاء نتلاقى في المناسبات الاجتماعية من أجل الأبناء فرفض!

سألته عن مصيري معه فقال لي لك الحرية في أن تتزوجي في هذه الشقة.. ولك الحرية في أن تحتفظي بالأولاد.. أو تدعيهما لي إذا حال وجودهما معك دون زواجك!

وبالرغم من أنه قد مضى الآن حوالي عام على هذا الحديث فإني لم أطلب منه الطلاق حتى الآن. لكن حديثه هذا ألمني وجرح كبريائي إلى حد أنني لم أجد ملاذاً لنفسي سوى إنهاء إجراءات العمرة خلال أيام والسفر لأدائها.. وهناك- وربما لن تصدقني- دعوت له بأن يهديه الله.. ودعوت للأخرى بأن يهديها وأن تعود إلى حياتها الأولى بعيداً عنه.

والغريب أنني بعد هذا الحديث ورغم السلوى والعزاء في العمرة بدأت أشعر وأنا الأستاذة الجامعية أنني فقدت تماماً ثقتي في نفسي وبدأت أتساءل.. ماذا لديها وليس لدي!.. ماذا تعطيه ولا أعطيه له إنني من أسرة كريمة متمسكة بالتقاليد وبالقيم، وأنا كما يقولون لي جميلة لم أفقد رغم الأهوال التي عشتها جمالي الذي بهره في يوم من الأيام.. وأنا أنيقة يشهد لي زملائي وزميلاتي بسلامة ذوقي في اختيار ملابسني، وأنا محبوبة يقول عني تلامذتي وزملائي إني طيبة القلب وحلوة الحديث، ولا أتوانى عن مساعدة أي إنسان يطلب معاونتي، وأخيراً - واعذرني لهذا التعبير فانا طيبة أولاً وخيراً - " سليمة " التكوين الجسماني والنفسي كزوجة.. فماذا يعينني إذن.. ولماذا يحبني الناس جميعاً ما عدا الإنسان الوحيد الذي أحبه وأريده أن يحبني؟ لقد عرفته وعمره 17 عاماً، ولم أعرف الرجل إلا فيه، ولم تر عياني غيره منذ عرفته حتى الآن، إنك قد تتصورني " نكدية " أتشاجر معه في الأماكن العامة كلما أحسست بالغيرة عليه أو أحاسبه حساباً عسيراً كلما تسربت إليّ أنباء مغامرة جديدة له. لكن ذلك غير صحيح والله فخلال عشرين سنة عاشرتة فيها حتى الآن لم يرتفع خلالها صوتي مرة واحدة عليه وكل مناقشتي معه كانت هادئة.. ولم أكن أحتمل أن أسمع منه كلمة " آسف " حتى أنسى كل شيء وأعود إليه بكل كياني. والآن وصلت يا سيدي إلى مفترق الطريق وأريد مشورتك فيه. إن الواضح أن النزوة الأخيرة ليست ككل النزوات! وواضح أنه لن يفيق ويعود إلى بيتته وقبل سنوات طويلة ولا يريدني.. ولكنه لا يريد أن يبدأ هو بطلاقي منتظراً " كجنتلمان " أن تأتي الرغبة مني أولاً.. وأبنائي من جهة أخرى لا يريان غضاضة كبيرة في انفصالي عن أبيهما وزواجي من آخر، فقد نصحني ابني الشاب في ذلك بعد أن لمس معاناتي ووحديتي. لكنني أفكر وأرجو أن تفكر معي.. هل لو انفصلت عنه بالطلاق تكون صدمة الطلاق أو هذا الطلاق سبباً كافياً لكي يرجع إلى عقله ولو بعد حين فيعود إليّ وإلى ابنيه؟

وهل لو حدث الانفصال سأجد من يقبلني بوضعي الحالي سيدة على شفا الأربعين معها ولد وبنت في سن المراهقة أم هل ترى تنصحنى بأن أصبر إلى أن يعود إلي بعد أي عدد من السنين بعد أن تهدأ العواصف ويثوب إلى رشده.. وإذا حدث ذلك كم من العمر؟ سيتبقى لي لكي أعيش معه وماذا سأجد عنده حين يعود في أواخر العمر وهل تعتقد أنني سأجد في نفسي القدرة على العطاء له مرة أخرى بعد أن جفت أوراقى في انتظاره؟



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

وماذا تنتظرين يا سيدتي بعد كل ذلك لتختاري بين حياتك وبين ضياعك اللانهائي. وأي طلاق هذا الذي تقفين أمامه مترددة: إنك "مطلقة" بالفعل وإن لم تتخذي بعد إجراءات الطلاق!.. لقد هجرك زوجك واستقل بحياته عنك وإن كان يلتزم بمسؤوليته المادية عن ابنه وهو متفرغ لحياته وتطبيقاته العملية للفلسفة الأبيقورية التي يعتنقها فيما يبدو فهو رجل "تلذذي" يتعامل مع الحياة بطرف لسانه يذوقها.. ويحكم عليها بحاسة الذوق فقط أما الاعتبارات الأخرى فلا قيمة لها عنده! وهذا شأنه، وحسابه مع ربه وليس معك.. ثم هو يسهل عليك الأمر لكي تنصر في عنه إلى زواج آخر.. وابناك متقبلان فكرة زواجك، والجميع يعرفون كم عانيت وكم صبرت.. وكم انتظرت فماذا تنتظرين؟ إنني أعرف كم هو صعب عليك أن يحرم الإنسان بلا ذنب له ممن يحب.. وأتصور أنه محفور داخلك وصعب عليك انتزاعه بسهولة من أعماقك.. لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، ثم ماذا يفعل الإنسان حين يصطدم بحائط صلب يسد الطريق أمامه؟ هل من المنطق أن يواصل الدق عليه برأسه ويديه لكي يرحله من مكانه؟ أم من الأفضل أن يستدير عنه إلى طريق وإلى حياة جديدة!

ابدئي يا سيدتي حياة جديدة.. قبل أن تنهار مقاومتك وتعرضي نفسك للضياع مع احترامي الكامل لك ولا تأسى كثيراً على ما راح، فما وقع لا يسيء إليك بقدر ما يسيء إلى من لم يقدر حبك وعطائك وإخلاصك له. ولا يسيء المرء ألا يجد تقديره لدى أحد معين من الناس.. فالجوهر الحقيقية لا تقل قيمتها حين تقع في

يد من لا يكتشف أصلتها.. وإنما تبقى الجوهرة جوهرة إلى أن تقع في يد من يقدرها حق قدرها، ومن يزيح عنها تراب السنين فتسفر عن سطحها الوهاج، فاستعيدي ثقتك بنفسك يا سيدتي.. وأنت الأستاذة الجامعية التي تهب الثقة في النفس للآخرين انتظري فترة قصيرة تكون بمثابة مرحلة انتقالية بين حياتين لتندمل الجراح ولتخلصي تماماً من أثر الماضي ومشاعره وعذاباته ثم ابدئي حياتك الجديدة وستجدين إن شاء الله من يمسح بيده على آلامك ومن يعيد إليك الابتسامة ويعوضك عما لقيت في تجربتك المؤلمة، فهذا أفضل كثيراً من البقاء معلقة في الهواء كما أنت الآن وأفضل كثيراً من الحياة على أمل اللقاء الخاطف بالمصادفة في إشارة مرور مع من تحملين اسمه.. ولا تربطك به منذ سنوات أية صلة حقيقية بين زوجين! إنني أسف لهذا الرأي القاسي وهو ضد طبيعتي لكني لا أرى لك رأياً غيره.. كما أنني لم أجد نفسي ميالاً إلى أن أنصحك بأن تعيشي لأبنيك كما تفعل كثيرات لأنني أحسست من رسالتك أن بك رغبة كامنة لأن تأخذي نصيبك من الدنيا وهذا حقك لأن ابنك يرحبان بهذه الخطوة ولا يعترضان عليها.. والى اللقاء..



عريس لأختي

كأني نأكت جرحاً قديماً في قلوب كثيرين حين نشرت منذ أسابيع رسالة الطبيب الشاب الذي يشكو رفض زميلاته له - لمجرد أنه مطلق أو صاحب سابقة واحدة في الزواج والطلاق، فقد انهالت رسائل قارئات وقراء كثيرين يروون تجارب مماثلة ورسائل أمهات وآباء يعرضون على الطبيب الشاب التعرف عليه للتقدم لخطبة بناتهم المستعدات للقبول والترحيب به، ورسائل مطلقات يشاركه عن بعد مشاعره ويقنن له إذا كان الرجال لا يستطيعون حل هذه المشكلة ويعانون منها فكيف تكون معاناتنا نحن معها، وأكثر من ذلك فقد تفضل بزيارتي آباء أفاضل يشغلون مراكز مرموقة يحبون التعرف على هذا الطبيب تمهيداً للتقدم للزواج من بناتهم، وكعادتي في مثل هذه الظروف فإني أطلب ممن يتقدم بمثل هذا العرض أن يكتب اسمه وعنوانه لأضمه إلى ملف الرسائل التي تلقيتها تعليقاً على هذه القصة، وأستاذنه في أن أقدم عرضه مع غيره إلى صاحب الشأن على أن ينتهي دوري عند هذا الحد، وعلى أن يجري الاتصال مباشرة بين الطرفين دون تدخل مني فإذا وفقهما الله إلى الخير فلعلي أسمع به من بعيد.

وأعود إلى قصة الطبيب الشاب فأقول إنني تلقيت رسائل عديدة تعليقاً عليها آثار بعضها شجوني، وأثار بعضها ألمي لكن إحدى هذه الرسائل هزت وجداني بعمق لسبب هو أن كاتبها ليس أباً أو أماً لا يريان أية غضاضة في السعي الشريف لإيجاد زوج للابنة لكنه شقيق على درجة عظيمة من الثقافة والتعليم والثراء، وشقيق أعزب لم يوفق للزواج حتى الآن لكنه غير مهموم بذلك وإنما مهموم أساساً بإيجاد الزوج لشقيقته قبل العثور على الزوجة لنفسه، وهذا وحده يكفي لكي أحبه وأحترمه بلا سابق معرفة.

تقول كلمات رسالته:

رغم مشاغلي العديدة كمهندس مدني أعمل وأمثل مصر خير تمثيل في مجال عملي، وسلوكي فقد رأيت أن أكتب لك معلقاً على رسالة الطبيب الشاب لأنها أثارَت ألامي كثيراً فأنا يا سيدي أعزب حتى الآن رغم نجاحي في حياتي، لكن ذلك لا يشغلني كثيراً بقدر ما تشغلني مشكلة شقيقتي التي تغربت معي في السعودية لمدة 5 سنوات عملت خلالها مدرسة للغة الإنجليزية.

والمشكلة أنها مازالت حتى الآن آنسة رغم تخرجها منذ عشر سنوات وبالرغم من أننا والحمد لله أسرة طيبة كافحت ليصل أفرادها إلى مراكز طبية فإننا ثلاثة أطباء ومترجمة ومهندس والحمد لله فحالتنا المادية جيدة وشقيقتي هذه كريمة الخلق متدينة وسلوكها حميد بفضل الله لكن المشكلة هي ماذا يريد شباب مصر في الزوجة المطلوبة؟ إن شقيقتي هذه تتوافر فيها الصفات الأربع المشهور وهي جمال ومال وشباب وأخلاق فما الذي يريدونه أكثر من ذلك. قد لا تجد إجابة عن هذا السؤال لكنني من ناحيتي أستطيع أن أجيب عنه ببساطة قائلاً: لقد عميت الأبصار وكفى أن تجربتي في الحياة تسمح لي بأن أفهم الأمور، وأنا أعرف أن

هناك أزمة زواج في العالم كله أو على الأقل في العالم الثالث الذي لا أعرف غيره وقد سمعت أنه في بعض الدول العربية يقوم الأب الذي لديه ابنة طال انتظارها للزوج بالإعلان عنها بنفسه في المسجد عقب الصلاة وقد لا يخرج منه إلا وفي يده شاب يعاني نفس المشكلة ولا يجد الأب في ذلك غصاصة فهو يسعى لستر ابنته بطريقة مشروعة.

بل وكذلك فعلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين زينت جارية لها وقالت لعلنا نتصيد بها فتى من فتیان قريش، أي نتصيد لها زوجاً كريماً وها أنا أنفذ ما فعلته وأعرض على هذا الطبيب الشاب أن نبدأ معاً بداية قد تكون غريبة لكنها صحيحة وسليمة ومشروعة فأدعوه إلى أن يفعل كما فعل الصحابي بنصيحة رسول الله، فقد كان يتخبأ لها ليرى من عرض عليه زواجها عن بعد قبل أن يتقدم لها وها أنذا أفعل الشيء نفسه، وأدعوه لأن يسأل عنا ليرى إن كنا نتكافأ معه اجتماعياً أم لا؟ فإذا رأى ذلك فإني أدعوه لأن يتقدم لها ليراها عن بعد فإن وافقه شكلها فإني أرحب به عضواً في أسرتنا المكافحة وهذا هو عنوان عملها في مصر فلقد رأينا أن تعود إلى مصر لكي تجد فرصتها في مجتمعها.



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هذه هي الرسالة التي تلقيتها وأحببت كاتبها وأحترمه كثيراً والحق أنني قد جازفت بنشرها غير متأكد إذا ما كان النشر سوف يثير ضيقه أم لا؟ وعذري أنه لم يطلب مني صراحة عدم نشرها فرأيتها فرصة لكي أقدم للبعض صورة لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة الصحيحة بين الأشقاء من الإيثار والاهتمام بحياة الآخر والتنازل قليلاً عن بعض الإعتبارات في مقابل إسعاد الآخرين، إنني أحیی فيك يا صديقي كل هذه الفضائل وأحیی فيك اهتمامك بسعادة شقيقتك ومستقبلها لكني أهمس في أذنك همسة صغيرة عن تساؤلك عما يريد شباب مصر؟ فأقول لك إن الشباب في بلادنا مثقل بالهموم والمشاكل وهو ككل شباب العالم يرغب في الزواج وفي الحياة الطبيعية، لكن يده قصيرة وآماله تتحطم غالباً على صخرة شقة الزواج ولو حلت هذه المشكلة ولو بعد عمر طويل لخفت أو لاخفت أزمة الزواج فلا تظلم شباب بلادك فهم ضحايا وليسوا جناة وألف لعنة على أزمة المساكن التي

لولاها ما بقيت فتاة ممتازة كشقيقتك دون زواج، ولما بقي شباب ممتازون
آخرون بلا زواج ولا أمل فيه حتى الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



موظفة .. قطاع خاص!

أنا يا سيدي فتاة عمري 25 سنة، وأنا أكبر إخوتي إذ أننا ثماني بنات وأبناء، أمي سيدة طيبة فيها ملامح الأمهات الطيبات المغلوبات على أمرهن غالباً.. وأبي رجل ميسور الحال لكنه كبعض الرجال مشغول بذاته عنا، وقد تزوج أمي منذ 28 عاماً، مضت رحلة حياتها بأيامها السعيدة وأيامها التعيسة. لكن الخطر البارز في هذه الحياة كما وعيت واستطعت أن أدرك وأفهم هو أنانية الأب الذي لا يريد أن يضحي بشيء من راحته أو من رفاهيته لأبنائه وأعدرتني في هذا القول فما أقاسيه يجبرني على ذلك، فكل الأزواج كانت هناك خلافات عادية بين أمي وأبي وكانت تهدأ أحياناً.. وتتفجر في أحيان أخرى لكن منذ 3 سنوات تصاعدت حدة هذه الخلافات، فماذا تظن أن أبي قد صنع إزاء هذا الموقف؟ لقد هجرنا ببساطة تاركاً وراءه هذه الأسرة كبيرة العدد بلا مال وبلا نفقة أو مبلغ شهري نتعيش منه، وكلنا طلبة وطالبات في مراحل التعليم ثم ذهب ليبحث عن زوجة جديدة لكي تعيد إليه شبابه الذي أضاعه بيننا، قد تقول إنها كارثة، لكنها تحدث أحياناً وهي كذلك فعلاً، لكنها كانت أكثر من كارثة لأن أبي سامحه الله تركنا دون أن يفكر لحظة واحدة كيف سنكمل تعليمنا؟ ومن أين سنأكل وكيف سندفع إيجار الشقة؟ إلخ ولن أروي لك تفاصيل حياتنا في الشهور الأولى لهجرته لنا وسأقفز فوق هذا الفصل الحزين لكي أقول لك إنني حصلت على شهادتي الجامعية بعد هجره لنا بشهور، وكان عبثاً بالطبع أن أنتظر تعيين القوى العاملة لأن أفواه إخوتي لن تنتظر خطاب التعيين، فخرجت للعمل في القطاع الخاص ووفقتي الله في العمل في إحدى الشركات براتب مجز وأنا منذ 3 سنوات أعمل لمدة 14 ساعة كل يوم لكي أستطيع أن أفي بنفقات هذه الأسرة الكبيرة بعد أن عاهدت نفسي أن أعول إخوتي جميعاً، إلى أن ينهوا دراستهم والحياة تمضي صعبة أحياناً وهنية أحياناً لكن تزداد قسوتها حين أتذكر أبي المنصرف عنا مع زوجته الجديدة دون أن يفكر لحظة في 8 أبناء، وهو القادر الميسور أو حين أتعرض لمضايقات أخي الأصغر الذي أتم تعليمه منذ عامين ومع ذلك مازال عالمة علي ولا يريد أن يعمل، وقد أنفقت عليه في العامين الأخيرين له في الدراسة وفي فترة الجيش وانتهى التجنيد، لكنه لا يريد أن يعمل، إلا عملاً لائقاً به. ويفضل أن يبتزني فإذا رفضت أن أعطيه النقود لأن البيت في أشد الحاجة إليه سبني وأهانني وهو لا يعنيه أن يجوع إخوته لكي يذهب هو إلى النادي ويسهر مع أصدقائه فيه، ورغم كل ذلك فأنا لا أشكو لأحد من حياتي بل لعلي أشعر في أعماقي بالفخر، لأنني دفعت عن أسرتي الجوع والعوز والبهدة والاحتياج للاقتراب والحمد لله فإننا منذ هجرنا أبي لم نحتج لأحد بفضل عملي وستسألني ماذا أريد إذا؟ وسأقول لك أولاً.. إنني لا أريد شيئاً ولا أطلب مساعدة ولا عوناً من أحد، ولن أقبل ذلك أبداً لكني أريد شيئاً آخر سأؤجله إلى حين بعد أن أصل بك إلى المشكلة.

المشكلة أن صاحب الشركة الخاصة التي أعمل بها وأتقاضى منها الراتب المجزي الذي يعول هذه الأسرة الكبيرة كان يعاملني في البداية برفق وبطيبة زائدة، وكنت شديدة الامتنان له لذلك وأعتبره تقديراً إنسانياً منه لظروفي الخاصة ومسؤوليتي،

ولكن بعد مرور الأيام وخصوصاً في الأيام الأخيرة ظهرت النوايا واضحة فهو بصراحة تامة يريدني رغم أنه زوج وأب لبنت وثلاثة أولاد هل تعرف معنى هذه الكلمة؟ إنني واثقة من خبرتك بالحياة لكنني سأسألك سؤالاً أكثر صراحة هل تعرف ماذا يعني رفضي لرغبته رفضاً نهائياً؟ إنني أيضاً واثقة من خبرتك بالحياة وبالعمل في بعض مواقع العمل الخاص التي يكون مصير إنسانة فيها مثلي وأسرة من ورائها معلقة بكلمة من فم صاحب العمل، لكنني سأزيدك أيضاً خبرة بهذه المشكلة.. إن المعنى الوحيد لرفضه لرغبته هو أن أسمع بين لحظة وأخرى هذه العبارة فوتي على الحسابات خذي حسابك ولما نعوزك حنبتك، إنني لا أقول إن كل أصحاب الأعمال هكذا فهناك دائماً الفضلاء وغيرهم لكنني أشرح لك ما يحدث أحياناً في بعض المواقع والحمد لله أنني لم أصل بعد إلى هذا الموضوع، لكنني الآن سيدي مهددة بفقد عملي الذي لن أستطيع أن أجد عملاً مجزياً مثله، ولن أستطيع الاعتماد على أبي البعيد عنا أو على شقيقي الأصغر الذي يرفض العمل لكنني أيضاً لن أفرط في نفسي ولو مت جوعاً بل ولو ماتت أسرتي كلها جوعاً.

وأنا أتجاهل وأتعامى وأتهرب، محاولة أن أطيل بقدر الإمكان فترة عملي حتى إذا وقع المقدور يصبح لا مفر من المرور على الحسابات وأريد منك إن تكرمت الآن شيين لا ثالث لها.

الأول: هو أن تشير عليّ بما أفعل وبها يحفظ عليّ كرامتي ونفسي ويدفع عني وعن أسرتي شر الحاجة.

والثاني: وهو الأهم هو أن تنشر هذه القصة لكي يعرف بعض الآباء لأي مصير يتركون أبناءهم وبناتهم استجابة لنزواتهم أو أنانيتهم.



ولكاتبه هذه الرسالة أقول:

إنك يا صديقتي فعلاً في محنة أعرف جيداً حجم أبعادها وأعرف جيداً مدى جدية التهديد الذي يهددك بفقد هذا العمل، لكنني غير قلق عليك لأني واثق من أنك لن تسلمي نفسك أبداً للضياح.

فمن تنهض لتحمل مسؤولية أسرة كبيرة العدد مثلك بلا ضجر ولا سخط على الحياة وعلى الأسرة نفسها ومن تعمل 14 ساعة يومياً لتعولها وتعاهد نفسها بأن تعول إخوتها جميعاً حتى يتخرجوا في المدارس والجامعات وتفخر بذلك وتنكر ذاتها في سبيل أسرتها، مثل هذه الشخصية لا يخشى عليها الإنسان من الضعف أمام العيب أو من الاستجابة لنزوة صاحب عمل، أو بيع نفسها بثمن بخس فأنت فتاة جادة شريفة يا صديقتي والفتاة الجادة لا تسلك هذا السبيل السهل مهما كانت المغريات، لذلك فإني شديد الثقة بك على غير معرفة وستثبت الأيام صدق ظني فيك إذن فهذه ليست القضية، وإنما القضية هي كيف تحافظين على عملك دون أن تخسري نفسك وفي هذا المجال فإني أتوقع شيئين إما أن ييأس منك صاحب العمل مع تأكده من جدية أخلاقك وجدية عملك وإحساسه بظروفك وحجم مسؤولياتك فيعفيك من مطالبه، ويبقى عليك وهو احتمال ليس بعيداً خاصة إذا شرحت له بأدب ودون إيلاجه ظروفك العائلية وتمسكك بالألا تخسري نفسك مهما حدث، ورغبتك مع هذا في الاستمرار في العمل فقد يستيقظ ضميره ويدعك لشأنك ولا يخلو إنسان مهما بدا من تصرفاته من جانب إنساني خير في أعماقه ينتصر أحياناً.

أما الشيء الثاني فهو أن يستمر في غيه وأن ينتصر جانب الشر فيه فلا يترك لك مجالاً للاختيار وسيكون اختيارك بالتأكد لدينك ولكرامتك وشرفك ومستقبلك وفي هذه الحالة سوف أسألك من أين جئت باليقين أنك لن تجدي عملاً مجزياً مثله؟ إذا تركت هذا العمل؟ كيف تأكدت من ذلك قبل وقوعه؟ إننا لا نعرف من أمرنا الكثير فكيف عرفت أنت ذلك؟ لقد وفقك الله إلى هذا العمل الذي أنقذت به أسرتك فإذا شاعرت الأقدار أن تفقديه فسوف يختار الله لك عملاً آخر في مكان آخر وستجدين عملاً آخر ولو براتب أقل ولا بأس في ذلك فدفاعك عن حياتك يستحق بعض التضحيات.

وإذا كانت التضحية ضرورية ببضعة جنهات أقل في الدخل فإن ما تدافعين عنه يستحق ذلك وأكثر منه، وربما لا تحتاجين إلى كل ذلك إذ قد يزيد دخلك بدلاً من أن

ينقص، وأبلغيني بتطورات قصتك فلربما استطعت معاونتك في هذا المجال، أما عن رغبتك في نشر هذه الرسالة ليقراها أبوك ومن على شاكلته من الآباء ليعرفوا لأي مصير يعرضون أبناءهم فهذا حقك وهي رغبة نبيلة في إيقاظ بعض الآباء من غيهم، لكن لا تشغلي نفسك كثيراً بهذا الأب المارق العايب اللاهي، وواصل حياتك الكريمة الشريفة المعطاءة بدون الأسى عليه، فمثله لا يستحق أحزانك ويكفيك أنك أكثر أبوة لأبنائه منه هو الذي أنجبهم من صلبه، ولن أقول إنك أكثر رجولة منه خوفاً من أن يسيء إليك بغير قصد هذا التعبير.



أريد حلاً!!

أرجو ألا تفقد صبرك وأنت تقرأ رسالتي هذه فإن ما أشعر به جاثم فوق صدري يدفعني دفعاً لأن أطيل الحديث معك، و هذا أو الجنون فاسمعي أرجوك لأني أريد حلاً، هل تذكر هذا الفيلم الذي يحكي قصة زوجة معذبة تريد الطلاق من زوجها وتلطعت في المحاكم للحصول عليه بلا فائدة، اني أريد حلاً مثلها تماماً مع اختلاف بسيط هو أنني الرجل لا المرأة وهذه هي المشكلة:

فأنا يا سيدي محاسب عمري الآن 43 سنة وأحصل على راتب قدرة 200 جنيه، وقد وصلت إليه بعد رحلة كفاح طويلة فقد بدأت حياتي العملية موظفاً بمؤهل ثانوي صناعي وكنت طموحاً فذاكرت للحصول على الثانوية العامة. وبدأت من السنة الأولى الثانوية وذاكرت لمدة ثلاث سنوات حتى حصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية بمجموع بسيط، فالتحقت بمعهد لإعداد الفنيين التجاريين أملاً في الحصول على تقدير جيد جداً في أول سنة فيصبح من حقي التحويل إلى كلية التجارة، لكنني لم أستطع الحصول إلا على تقدير جيد فقط، ولم أياس رغم ذلك وإنما قمت بإعادة الثانوية العامة وبذلت جهداً مضاعفاً ووفقتي الله في الحصول عليها بمجموع يؤهلني للالتحاق بكلية التجارة فالتحقت بها واطمأنتت إلى أنني قد وضعت قدمي على بداية الطريق إلى تحقيق طموحي ومرت السنوات الأربع بعد ذلك سريعة، وحصلت على بكالوريوس التجارة بسهولة، وكافحت في عملي حتى انتقلت منه إلى عمل يلائم تخصصي ومؤهلي الجامعي وأصبحت محاسباً كفاء في عملي والحمد لله.

وخلال هذه الرحلة الشاقة كنت في حاجة إلى رفيق لكفاحي فتزوجت وعمري 34 سنة، من مدرسة ابتدائي عقب حصولي على دبلوم إعداد الفنيين، وعشت معها بإخلاص وتفان وصدق في كل شيء عشنا معاً في الحلوة والمرارة وتقاسمنا لقمة العيش بحب وإخلاص وكانت تقول لي: أنت أبي وأخي وكل شيء في حياتي وسأعوضك عن تضحياتك من أجلي، وكانت تضحياتي التي تقصدها تضحيات تافهة في نظري فقد أجهضت مرتين فكنت أرهاها خلال مرضها بكل إخلاص وأهون عليها حزنها لضياح الحمل وأقول لها حين يشاء الله سوف نرزق بالولد فلا داعي للحزن والاعتراض على مشيئة الله، ثم نجح حملها في المرة الثالثة وأنجبت ابناً الوحيد ولا أعرف ماذا حدث لها بعد الإنجاب " تغيرت الزوجة الطيبة وأصبحت زوجة متسلطة أمرتني أن تفرض علي إرادتها في كل شيء ولم تعد الزوجة الراضية المشجعة لي، كانت أزماننا الصغيرة تمضي بسلام وتنتهي عادة بتنازلي عن موقفي إرضاء لها، وإكراماً لعيون وليدنا الصغير ثم بعد الإنجاب بشهور ذهبت زوجتي إلى بيت أسرتها لحضور زفاف شقيقها الأصغر، وذهبت معها لحضور الفرح، وفي نهايته طلبت من زوجتي أن ننصرف للعودة إلى بيتنا فقالت لي أمها دعها تبت معي الليلة وستلحق بك غداً، فوافقت بسرور وعدت إلى بيتي أما هي فلم تلحق بي في اليوم التالي ولم تعد إلى بيتها منذ ذلك الحين منذ 6 سنوات هل تصدق؟...

ذهبت إلى بيت أسرتها لأسأل عنها فقبل لي كلام كثير وشروط كثيرة مؤداها ألا أصبح رجلاً في بيتي، وألا تكون لي فيه كلمة هذا أو تبقى في بيت أمها التي تعيش وحدها فتتحمل هي نفقات البيت ويخف العبء عن الأبناء المتزوجين وتقوم حماتي بتربية ابني بعيداً عني. فعلت المستحيل لمدة 9 شهور لأعيدها إلى بيتها بلا فائدة فلجأت مضطراً إلى القضاء وأندرت زوجتي بالطاعة فاعترضت على ذلك بأسباب وهمية من اختراع وترتيب أشقاء شياطين من خريجي كلية الحقوق، وكنت أقف أمامهم في ساحات القضاء والحق معي أترافع ضد الأعيبهم فنصرتني الله عليهم ورفض القضاء اعتراضهم في الدرجتين الأولى والثانية ولم تنفذ زوجتي حكم الطاعة فحصلت على حكم بإسقاط نفقتها لنشوزها كنت حتى ذلك الحين قد أمضيت 6 سنوات في التلطم أمام المحاكم، أقامت زوجتي بمساعدة الشياطين 15 دعوى قضائية ضدي للاعتراض على الطاعة خسرتها جميعاً. كل ذلك يا سيدي بلا سبب من ناحيتي، وفي كل مرحلة من هذه المراحل أعرض الصلح والعودة فأقابل بالجحود والعداء، وكل ذلك وابني الوحيد يعيش يتيماً محروماً من أبيه بلا سبب ولا أستطيع أن أراه رغم حصولي على حكم رؤية لأن زوجتي ترفض تنفيذ هذا الحكم أيضاً.

وكل ذلك وأنا أعيش منذ 6 سنوات أعزب رغم زواجي على الورق، ولا أستطيع أن أطلقها لأتزوج غيرها تسألني لماذا؟ إنني أعرف ما يدور في ذهنك وقرأت تعليقاتك على حالات مشابهة تقول للزوج المعذب فيها إن الدنيا كلها لا تساوي هذا العذاب فاترك العمل الذي يجمعك بزوجتك السابقة أو أترك الزوجة الناشز وأبدأ حياة جديدة وأنا أحترم آراءك إنك تصدر فيها عن حب لقرائك وعن تقدير لعذابهم.

ولكن يا صديقي العزيز سأبوح لك بسر قد لا يعرفه كثيرون وبالذات لا يعرفه العباقرة الذين صاغوا قانون "الأهوال" الشخصية الجديد وأدعوهم لأن يعرفوه لكن يعرفوا ماذا جنت أيديهم نفاقاً للبعض.

إنني أكافح منذ 6 سنوات لاسترداد زوجتي وابني بلا فائدة ورغم ذلك لا أستطيع طلاقها لكي أبدأ حياة جديدة مع غيرها لأن طلاقها لها معناه حصولها على شقتي التي لا أملك من حطام الدنيا غيرها والتي لا مأوى لي غيرها، ولا أمل في أي مأوى غيرها، وشقتي ثمنها الآن حوالي 30 ألف جنيه وهو كل ما تريده زوجتي من وراء هذا العذاب وهذا المرار الذي أتجرعه كل يوم.

فقل لي بربك أو أسأل لي عباقرة الزمان الذين تبناوا هذا القانون كيف أطلقها وأتنازل لها عن الشقة التي لا أملك غيرها، ثم أجد نفسي مشرداً بلا مأوى، أو كيف أطلقها وأقبل وجودها معي في الشقة بلا زواج ثم كيف أتزوج وأقيم مع مطلقتي في نفس الشقة وأين هي الزوجة التي تقبل هذا الوضع؟ إنني أتقدم لفتيات كثيرات كشاب متدين يرفض الدنيا في دينة ويرغب في الحياة السوية ولا يريد أن يغضب ربه، فما إن يعرفن أنني زوج لناشز ولي منها ابن حتى يسر عن بالفرار فكيف يكون لو طلقت زوجتي وأصبحت بلا شقة.

فمن تقبل الزواج مني في هذه الحالة؟ إنني أريد حلا.. فهل أجده لديك؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا يا صديقي ليس لديّ الحل الذي تنشده ولا أظن أن أحداً لديه مثل هذا الحل، لكني أنشر رسالتك هذه لألقي الضوء على هذه المشكلة الاجتماعية الجديدة وليطلع المختصون عن هذه الآثار التي لم تكن فيما أتصور واضحة أمام من صاغوا هذا القانون وأدعو مشرعينا وأهل الاجتهاد منا ليبحثوا لأمثال هذا الزوج المعلق في الهواء عن حل عادل لمشكلته ومشاكل أمثاله العديدين، ولا أظن أن ما أقدمه لك في هذا المجال كثير فهذا هو أضعف الإيمان ولست من أهل الفتوى لأفيدك برأي يريحك في مشكلتك، والرأي الذي أراه لن تقدر على تنفيذه فهو أن تترك كل شيء وتبيع كل شيء من أجل سعادتك وحياتك وهو أن تتحرر من كل قيود الماضي، وتبدأ من جديد وأنت رجل صلب بدأت من الصفر وكافحت كفاح الأبطال لتبني حياتك العملية ومثلك لن يعجز إذا حطم القيود عن يديه عن أن يفعل المستحيل ليبدأ حياة جديدة مع زوجة مناسبة في العمر وفي الظروف الاجتماعية وقد تكون مشكلة السكن لديها ميسرة، فما أراه من حال زوجتك يقطع بأنه لا أمل فلا تنطح الصخر، وأنت على أية حال معذور في تمسكك بهذا الوضع الغريب وهي لو كانت راغبة في التخلص من حياتها معك فقط ففي إمكانها ببساطة التنازل عن المسكن مقابل الطلاق خصوصا وأنها تعيش مع أمها الوحيدة، لكنها لا تريد ذلك فيما يبدو والقانون معها. وكلاهما ضحية لقصور قانون يعطي حق حل مثل هذه المشكلة للأثرياء فقط، ولأصحاب الشقق البديلة، أما غير القادرين من أمثالك فإنه يجبرهم على تجرع العذاب بلا أمل في الحل، لأن من صاغوا القانون زفوه إلينا على أنغام موسيقى الجاز، نسوا فيما نسوه معالجة مثل هذه الآثار إنني أقرأ في بريدي العجب عما يحدث نتيجة لمثل هذه الأوضاع وما خفي كان أعظم:

فلعل من صاغوا هذا القانون يعجلون بمعالجة آثاره قبل فوات الأوان، ليقدّموا لك ولأمثالك الحل العادل لمشاكلهم وألامهم.



عيون الآخرين!

قد لا ترى في مشكلتي هذه أنها مشكلة جدية تستحق الاهتمام والمساعدة في حلها... لكنك لو دقت النظر فيها فستجد أنها مشكلة مهمة بالنسبة لشباب مثلي.. فأنا طالب بكلية التجارة ومشكلتي باختصار هي أن شكلي مثير لسخرية الآخرين لسبب لا ذنب لي فيه. فأنا مصاب ببروز عجيب للأسنان وأتمتع بأنف طويل جداً جداً مما يكون أسناني البارزة صورة كاريكاتيرية عجيبة مثيرة للاستهزاء والسخرية.

ونحن يا سيدي نعيش في زمن لا يرحم فيه الأخ أخاه، وقد لا يعفيه من كلمة جارحة لهذا السبب، فكيف يكون الحال مع الغرباء؟ لك أن تتصور حالي وأنا أواجه في كل مكان عبارات السخرية والتنكيت على شكلي... فإذا لم تتردد في وجهي سمعتها من وراء ظهري وقد تضاعف عذابي بعد أن أنهيت دراستي الثانوية والتحقت بالجامعة وتحملت فيها الكثير من كلمات الزملاء والزميلات وعانيت أكثر من نظراتهم الجارحة وضحكاتهم الساخرة، ولك أن تتخيل حالي حين أقابل زميلاً أو زميلة في الكلية فأجدها تنظر إليّ بشدة ثم تضحك أو تتبادل مع زميلاتها الهمس والإشارة والضحك، حتى أصبحت أشك في كل إنسان يضحك أمامي دون سبب، وأعتقد أنه يضحك سخرية مني وأنا أتساءل ما ذنبي في كل هذا العذاب؟ وهل يختار الإنسان شكله؟ لو كان الأمر كذلك لاخترت لنفسي أجمل صورة لكي لا يسخر مني أحد، لكن الأمر ليس بيدي كما تعلم ثم لماذا لا نعيش بسلام ودون أن يسخر بعضنا من البعض؟ إنني منذ كنت في المرحلة الثانوية وأنا أبحث عن حل لهذه المشكلة في جراحة لتقويم الإنسان وتجميل الأنف لكن جراحات التجميل تتكلف الكثير وأنا من أسرة تحمد الله على الستر.. ولا إمكانيات لديها لمثل هذه الكماليات.

إنني على استعداد لأن أعمل بلا أجرٍ لدى الطبيب الذي يقبل أن يجري لي هذه الجراحة، على أن يعتبر عملي مقابلاً لسداد ديني وللفترة التي يحددها.. فهل أجد بين قرائك من يقبل هذه الطريقة لسداد الدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إن مشكلتك ليست فيما أتصور بالخطورة التي تتخيلها وأعتقد أن إحساسك بها أضخم كثيراً من حجمها بسبب استغراقك فيها ومعايشتها ليل نهار، ومع ذلك فإني أفهم عذابك. وأعرف أنه جسيم حقا أن يتصور الإنسان أن الناس جميعاً تسخر منه لعيب خلقي فيه، كما أنه جسيم أن يتصور دائماً عيون الآخرين وكأنها سهام موجهة إليه لكني لا أفهم حتى الآن كيف يستسيغ البعض أن يجرح إنساناً بكلمة أو بإشارة لسبب لا يد له فيه، هو شكله خصوصاً ونحن نعرف جميعاً أن الجميل لم يصنع جماله بيده ليكون له حق التفاخر، والقبيح لم يصنع قبحه بيده ليكون لنا حق السخرية منه، والبعض يا صديقي لا يدري أين تقع كلماته الجارحة من القلوب المعذبة والكلمة القاسية قد تدمي أحياناً بأكثر مما يدمي الخنجر المسنون لكن البعض لا يعرف ذلك بكل أسف! على أية حال اتصل بي لألتقي بك أولاً، فإن كان تقديرك لحجم المشكلة أكبر من الواقع فإنني سأنصحك بأن تتجاوز هذه التفاهات بقوة شخصيتك ومتانة أخلاقك وبعملك وتفوقك وحسن طباعك، فالشكل هو آخر مقياس لتقييم الإنسان وأنت في النهاية رجل ولست فتاة من حقها أن تأسى على جمال الشكل. أما إذا كانت المشكلة أكبر مما أتخيل فلن تحتاج إن شاء الله إلى أن تعمل بالسحرة لدى أحد لسداد دين جراحة، وإنما سأقدمك لمن يجريها لك بكل الرعاية الممكنة ومن حسن حظي أنني أعرف بعض الأطباء الذين يبغون وجه الله واليوم الآخر في أعمالهم والذين يرحبون بصدق وحرارة بأية فرصة للمساهمة في تخفيف آلام البشر سواء أكانت آلاماً عضوية، أم آلاماً نفسية كما هو الحال معك والله من وراء القصد.





وراء الأسوار

أكتب إليك هذه الرسالة لأني أريد أن أنفس عما في صدري... وقد اخترتك لكي أثبتك همومي لما لاحظته فيك من متابعتي لقصص بريد الجمعة من استعداد لمشاركة الآخرين همومهم على البعد، وما أوجنا يا سيدي إلى من هو على استعداد لأن يسمع للآخرين.. حتى ولو لمجرد الراحة النفسية التي يحققها من يتكلم! إنني شاب عمري 27 سنة. أعمل بالديكور ولي خبرة طبية فيه وأحقق دخلاً معقولاً من نشاطي فيه، لكنني أمضي أيامي الآن داخل أحد السجون وفاء لحكم القضاء عليّ بالسجن لمدة عامين، ولا أريد أن أخفف مما فعلت. فقد كنت شاباً شاردًا ضالاً تهربت بلا سبب من أداء الخدمة العسكرية وعشت حياتي ضائعاً بلا تقدير للعواقب مطاردًا.. خائفاً.. وكان من الممكن أن تمضي حياتي كلها هكذا لولا أنني التقيت بفتاة رائعة على خلق كريم وأحببتها بصدق وإخلاص، فقررت أن أعود إلى الطريق السليم باختياري وقبل أن تضيع مني حياتي، وكان حبي لها هو دافعي الأول للتوقف عن حياة الشرود والضياع، فهي شقيقة لأعز أصدقائي وفكرنا معاً ماذا نفعل لكي نحقق أحلامنا ونبني عشنا السعيد؟ واستقر رأبي ورأيها على أن أتقدم لخطبتها أولاً.. ثم أسلم نفسي للجهات المختصة لأتأجل جزائي العادل ثم أنهى فترة الحكم وأخرج لأتزوجها ووافق شقيقها على ذلك وأسرته أيضاً التي كانت تعرف كل ظروفها وتعرف أنني صادق الرغبة في الاستقامة، وفي أن أحيا حياة طبيعية شريفة وتقدمت للأسرة التي رحبت بي كثيراً وعاهدني الجميع على الوقوف معي حتى أجتاز هذه المحنة، وسلمت نفسي فحوكمت وحكم عليّ بقضاء عامين في معسكر العمل بسجن مديرية التحرير بمركز بدر، وتقبلت الأمر الواقع رغم شدته بشجاعة بل عشت أيامي الأولى وراء الأسوار راضياً عن نفسي أنني عدت للطريق السلم بإرادتي، مؤمناً بأن الدنيا ألم وسعادة ولن تحس بمعنى السعادة إلا إذا ذقت طعم الألم! لكن المشكلة يا صديقي أن الأيام تمر عليّ في وحدتي ولا شيء يشغل ذهني سوى انتظار اليوم الذي أخرج فيه لأبني عش أحلامي مع خطيبتي، لكنها من ناحية أخرى تمضي بغير أن تحمل لي خبراً أو رسالة أو زيارة من خطيبتي، أو صديقي الوحيد.. أو من أسرة خطيبتي التي رحبت بي وعاهدتني على الوقوف بجانبني، أنني أنتظر موعد توزيع البريد وقلبي يخفق فإذا انتهى بلا رسالة من خطيبتي كما يحدث كل مرة سرحت بنظري في الخلاء المحيط بالسجن والدموع تترقرق في عيني، وشيء ثقيل فوق صدري يكاد يكتم أنفاسي فإذا أمنت عيون النزلاء التي تعتبر البكاء ضعفاً أطلقت نفسي العنان حتى يستريح صدري.

وأنا أنتظر موعد الزيارة فيجيء الزوار وأتلفت وحدي يميناً ويساراً أبحث عن طيفها.. أو خيال صديقي الوحيد فلا أجد سوى السراب فيضيق صدري وتسيل الدموع من عيني.

إنني لست نادماً على اختياري للطريق السليم من أجلها ومن أجل نفسي، بل إن ندمي هو على شرودي وضياعي في الماضي، لكنني أسألك يا صديقي الذي لا

أعرفه إلا من كلماته هل تغيرت مشاعر خطيبي نحوي ... ولماذا كل شيء في حياتي كان واضحاً أمامها وأمام أسرتها قبل الخطوبة وبعدها وألا يعد ذلك غدراً بمن وفي بعهوده ودخل السجن باختياره لكي يحيا مستقيماً ويتزوجها؟ إنني أرجو أن تكتب رأيك في مشكلتي لأقرأه في وحدتي - " على " .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هذه هي الرسالة التي تلقيتها هذا الأسبوع من وراء الأسوار ومست قلبي بكلماتها الرقيقة وجوها الحزين ولكاتبها أقول إنني لا أستطيع يا صديقي أن أحكم على مشاعر من لا أعرفها أو أعرف ظروفها، لكن هناك شواهد قد تساعد على تقدير الموقف وأرجو أن تكون خاطئة! أما هذه الشواهد فهي توقف أي اتصال بينك وبينها وبينك وبين شقيقها وأسرتها، فانقطاع الصلات تماماً مؤشراً مهم على احتمال تغير المشاعر بعد صدور الحكم وتنفيذ حكم القضاء إنني قد لا أجد في انقطاع الزيارة عنك مؤشراً على تغير المشاعر لأن في الزيارة مشقة قد لا تتحملها خطيبتك وأسرتها.. لكن انقطاع الرسائل والاتصال بك عن طريق أهلك هو الأخطر فهو يعني أن فتاتك ربما راجعت نفسها وقررت عدم الانتظار أو ربما فوجئت بمدة الحكم وكانت تتصورها قصيرة، فإذا كان الأمر كذلك فإن من حقها أن تختار لنفسها ما تشاء، لكنه من حقك عليها وعلى أسرتها بالتأكد أن تبلغك بشكل ما ولو عن طريق أسرتك بقرارها الجديد، إذ ليس من الإنسانية أن تترك معلقاً في الهواء هكذا وأنت في محنة تحتاج فيها إلى من يقف بجوارك وإذا صح هذا الظن وبعض الظن إثم، فإنني أطلبك بالألّا تندم عليها وبالألّا تحزن لفراقها.. فمن لا تقف بجوارك في وقت الشدة.. لا تستحق أن تكون لها في وقت السلام والرخاء والهدوء والدنيا مليئة على أية حال بصور الغدر، ونقض العهود فلا تحزن لما

جرت به المقادير، ويكفيك أنك كنت رجلاً فوفيت بعهدك ودخلت السجن بقدميك لكن تكون لها بعد حين، فإذا كانت قد عميت عن تقدير هذه التضحية وعجزت عن فهم دلالتها وهي أنك على استعداد لتحطيم الصخر من أجلها.. فهي الخاسرة لا أنت.. لأنها خسرت رجلاً على استعداد لأن يفعل المستحيل لإسعادها فلا تبتئس يا صديقي واحتفظ بأهم ما كسبته من هذه التجربة القاسية، وهو الاستقامة وراسلني كل حين فإنه لما يسعدني حقاً أن أعرف شاباً مستقيماً جاداً مثلك وستمضي الأيام سريعة وستخرج إلى الحياة رجلاً شريفاً مسؤولاً فتجد من تختارك عن حب واقتناع وستفتح أمامك أبواب النجاح والسعادة بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



في السماء

أنا شاب في الثلاثين حاصل على ليسانس الحقوق وأعمل موظفاً في أحد القطاعات التابعة لوزارة الإعلام وبحكم الزمالة تعرفت على فتاة في مجال العمل وتوطدت علاقتنا سريعاً. وهي بالمناسبة فتاة جميلة شكلاً وموضوعاً ومن عائلة طيبة وكبيرة، وكنت أعتبرها في البداية مجرد زميلة أو صديقة لكنني كنت ألمح في عينيها علامات الحب. ولما طال انتظارها لكي أصرحها صارحتني هي بحبها.. وسعدت بذلك جداً بالرغم من أن شعوري حتى هذه اللحظة تجاهها كان مجرد الشعور بالارتياح حين أكون معها وكنا نخرج معاً عقب انتهاء العمل وأقوم بتوصيلها إلى بيتها ثم تقدمت لخطبتها فكدت تطير من الفرحة والسعادة وبمرور الأيام بدأت أتعلق بها... وتعلقت بها بالفعل وأحببتها جداً، لكن حبها لي ظل دائماً أكبر من حبي لها أضعافاً مضاعفة، وبدأنا رحلة الاستعداد للزواج ووفقنا الله في العثور على شقة وبدأنا تجهزها للزواج ونقوم بتأثيثها وخلال هذه الفترة كنا نذهب إلى الشقة معاً كثيراً لنتابع ما يجري فيها.. فنقضني فيها أوقاتاً سعيدة تعطيني خلالها من حبها ومن نفسها بسخاء حتى أصبحنا لا نستطيع الاستغناء عن بعضنا البعض. ومضت الأيام سعيدة حتى مر عام على الخطوبة وبدأت تلح عليّ لعقد القران فأجذني متردداً رغم حبها لي بكل جوراحها في إتمام هذا القران إذ أخلو إلى نفسي في الليل فأقول لها كيف أتزوجها بعد ما... لكنني لا أستطيع أن أواجهها بذلك خوفاً عليها فأنا إن واجهتها بذلك فإنها بالتأكيد إما أن تنتحر أو أن تمرض وتلازم الفراش وفي كلتا الحالتين فإن ضميري سوف يؤلمني جداً مدى الحياة ولن أغفر لنفسي هذا التصرف خصوصاً أنها إنسانة حساسة جداً وبالذات من ناحيتي ولو حدث أن أسأت إليها بغير قصد بكلمة فإنها تحزن وتبكي وقد تمرض لعدة أيام فكيف أصرح لها بها في نفسي؟ إنه شيء صعب لكنني لا أستطيع أن أتزوج إنسانة ذقت طعمها لأني لا أعرف كيف أستطيع أن أتعامل معها بعد الزواج بصورة طبيعية.. إنني في حيرة من أمري بل في صراع رهيب فأرجو أن تشير عليّ برأيك السديد“ .



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

رأيي " السديد " في هذا الموضوع إنك محق فيما تقول! إذ لا يجوز أن تتزوج من فتاة أحببتك وأحببتها وأخلصت لك وأخلصت لها وخطبتها ووفقتك الله في العثور على شقة لكي تتزوجها وبدأتها تأثيثها! نعم لا تتزوجها يا صديقي لأنه لا يصح أن تتزوج فتاة ذقت طعمها كما تقول لأن الأفضل وفقاً لمنطقك المريض أن تتزوج من ذاق غيرك طعمها ورفض أن يتزوجها لنفس السبب فتعلمت الدرس المؤلم وحجبت نفسها عنك! فهكذا يفضل بعض شبابنا التعامل مع قضية الحب والزواج، يا صديقي فتاتك كما تقول جميلة شكلاً وموضوعاً وفيها كل الصفات التي تتمناها.. وهي تحبك أضعاف ما تحبها وترغب في إرضائك بكل الطرق.. وقد أخطأت بلا شك في تصرفها معك على هذا النحو في فترة الخطوبة وأكبر أخطائها أنها لم تفهم شخصيتك الحقيقية الكامنة وراء المظهر المنمق، لكن خطأها لا يقاس بجريمتك حين تفكر في تحطيم حياتها وهجرها لأنها أحببتك وأعطتك من حبتها ومن نفسها بسخاء معتقدة أنها ترضيك بذلك.. إنني لا أوافق على تصرفها معك.. لكن لماذا تحاسبها هي وحدها على خطأ مشترك يا صديقي كف عن هذا التفكير الطفولي ولا تحرم نفسك ممن أحببتك وأخلصت لك لهذا السبب وحده، وتأكد أنك ستسعد بها بعد الزواج لأنها تحبك وحريصة عليك وراغبة في إرضائك.



حياة جديدة

تلقيت في بريدي هذا الأسبوع رسالتين الأولى من طبيب شاب من القاهرة، والأخرى من موظف حكومي في الأربعين. وبالرغم من أن كل رسالة منهما تعرض مشكلة مختلفة وتعكس صورة مختلفة للحياة.. فلقد أحسست أن هناك خيطاً رقيقاً يربط بينهما.. وبأن الرسالتين تتجاوزان بغير قصد وبغير سابق معرفة!.

تقول الرسالة الأولى:

أنا يا سيدي طبيب شاب حاصل على درجة الماجستير في أحد فروع الطب وسأعين قريباً بإذن الله في هيئة التدريس بالجامعة.. والحق أنني أشكر الله على توفيقه لي في دراستي وعملي كما أشكره كثيراً على أشياء أخرى عديدة فأسررتي أسرة محترمة.. وأنا شاب حسن المظهر وسيم مثقف ثقافة عامة لا بأس بها.. وأملك شقة تملك في إحدى عمارات مصر الجديدة وأقود سيارة صغيرة جديدة وعضو في ناد معروف من 12 نوادي العاصمة.. وليست لدي مشكلة مادية ولا مشكلة صحية والحمد لله.. وأنا شاب متدين لا أدخن ولا أرتاد أماكن أو أجواء أحب ألا يطلع عليها أحد، فما هي المشكلة أذن؟

المشكلة أنني يا سيدي كانت لي منذ سنوات وكأي إنسان تجربة زواج لم يرد لها القدر النجاح والاستمرار، فلقد كانت طباعي مختلفة تماماً عن طباع زوجتي وآرائي مخالفة لأرائها.. وعشت في تعاسة شديدة أفكر ماذا أفعل؟ هل أواصل الحياة مع زوجتي وكل الدلائل تقطع بأن الزواج لن يستمر، وأنه سوف يتحطم على صخرة الفشل لكن بعد أن نكون قد أنجبنا أطفالاً يتعذبون بانفصالنا ويضيعون بيننا.. أم أقدم على الانفصال قبل الإنجاب.. فأنقذ نفسي.. وأتيح لزوجتي فرصة أن تجد من يفهمها وتفهمه.. مادمننا عاجزين عن التفاهم.. فنخرج نحن الاثنين بأقل الأضرار الممكنة من هذه التجربة المؤلمة.

فكرت في ذلك طويلاً ثم حزمت أمري واتخذت قراري بالانفصال والطلاق رغم قسوته.. لكي لا أستمر في حياة فاشلة مصيرها إلى الانفصال مهما طال الزمن. وكان قراري في ذلك كقرار الطبيب ببتتر عضو من أعضاء الجسم إذا رأى في بقائه خطراً يهدد حياة المريض، وتم الطلاق وأديت لزوجتي السابقة كل حقوقها.. وواصلت حياتي وبعد فترة وجدت نفسي وحيداً وفي حاجة لأن أتزوج وهنا بدأت المشكلة فكلما تقدمت لفتاة وعرفت مني أنني قد سبق لي الزواج والانفصال نفرت مني وأعلنت عدم رغبتها في إتمام الزواج مني. والغريب أن الرفض قد جاء من فتيات كنت أظنهن راجحات العقل، فبعضهن كن طبيبات وبعضهن حاصلات على مؤهلات عليا، وكل جريمتي أمامهن أنني شاب صاحب سوابق في الطلاق، وبالتالي فلا أمان لي حتى صرت كالمصاب بمرض معد يخاف الناس أن يلمسوه، ولماذا كل ذلك الأتني أصر على أن أبدأ حياة جديدة على أساس من الصدق فلا أخفي نبأ زوجي السابق عنم أتقدم لها وأنا أصر على مفاتحتها به في اللقاء

الأول.. وهل ارتكبت جريمة حقاً بالانفصال عن زوجتي السابقة وهل الفشل في الزواج هو نهاية الحياة...؟ إنني والحمد لله لا أحسد أحداً على شيء لديه.. لكن أنظر وتأمل حكمة الخالق في أمري فأنا أملك كل المقومات المادية لبناء أسرة سعيدة وبيت صالح ولا ينقص هذا البيت سوى شيء واحد هو الزوجة والأبناء وغيري لا يملك من مقومات الحياة شيئاً إلا الزوجة والأبناء وكلانا غير راض وفي حاجة إلى مالدى الآخر إنني أتعذب بوحدتي وأتخيل السنوات تمضي بي بطيئة بلا حل لمشكلتي.. وكل عام يمر تتعقد مشكلتي وأفقد الثقة في نفسي أليست هذه دنيا غريبة لا تعطي كل شيء لمن يريد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

وتعليقي على هذه الرسالة: هو أنك لم تجرم بالانفصال عن زوجتك بالفشل في الزواج تجربة مؤلمة حقاً لكنها في النهاية تجربة يمكن أن يتعرض لها كل إنسان في حياته، ولا يجوز أن تكون سبباً كافياً لرفض إنسان أو النفور منه وصاحبات " العقل الراجح " اللاتي رفضنك لهذا السبب وحده لسن في رأيي من صاحبات التفكير السليم.

فالتجربة السابقة في الزواج ليست مبرراً كافياً للحكم على إنسان بأنه غير صالح للحياة الزوجية المستقرة، تماماً كما أن تجربة الزواج الفاشل في حياة مطلقة تعسة لا تكفي أبداً للحكم عليها بنفس هذا الحكم القاسي. فالمعيار السليم للاختيار هو أخلاقيات الشخص وقيمه ودينه وشخصيته. وليس حظه العاثر أو حظها العاثر في زواج فاشل فلا أحد يا صديقي يريد لنفسه الفشل أو يتمناه، وليس من العدل أن يحاسب الناس أحداً على سوء حظه في الحياة.

فإذا كان الأمر كما تقول فإنني أرى فيك شاباً مستقيماً أميناً وأبسط دليل على أمانتك هو حرصك على أن تبني حياتك الجديدة على الصدق لا على الخداع. وإصرارك على ألا تخفي أمر زواجك السابق... عن تتقدم لها، فتمسك بهذا المبدأ وسوف تجد من تتمناك وتقدر فيك هذه المزايا.



من الشرفة

نقلتني هذه الرسالة فجأة من دنيا إلى دنيا، ومن عالم إلى عالم آخر تقول كلماتها:

أكتب إليك هذه الرسالة وأنا في أشد حالات الضيق بعد أن سمعت عبارة ساذجة من طفلي الصغير، ولكي أقول لك ماذا قال لابد أن أروي لك الحكاية من أولها.

الحكاية يا سيدي أنني مهندس شاب كنت موفقاً في دراستي وفي عملي عمري 38 سنة متزوج من مهندسة زميلة لي وموفق والحمد لله في حياتي الخاصة وفي عملي. لدي ولد وبنت أسعد بهما وأشكر الله كثيراً على نعمته وأعيش حياة هادئة أتمتع فيها باحترام زملائي في العمل وجيراني وأقاربي، وأعيش في مستوى معقول رغم كل شيء.. زوجتي والحمد لله طيبة ومتقفة وعاقلة نجلس معاً أول كل شهر ونضع ميزانية الشهر فأجمع راتبي على راتبها ثم نحجز المصروفات الثابتة كالإيجار والكهرباء والأقساط المتوقعة ثم أعطي زوجتي مصروفات البيت وما يتبقى بعد ذلك أقسمه بالعدل بيني وبين زوجتي لمواصلتها ومواصلاتي وذلك بعد حجز مبلغ صغير كاحتياطي للنفقات الطارئة كزيارة طبيب الأطفال مثلاً، وحياتنا والحمد لله منظمة إلى حد كبير نعرف حدودنا ولنا طموحاتنا الصغيرة التي نحققها عن طريق الادخار.

وكل هدف نسعى إليه نخطط له قبلها بعدة شهور، فإذا أردنا مثلاً شراء غرفة نوم للأطفال نجيء بمظروف جديد ونكتب عليه اسمه ويضع فيه كل منا ما يستطيع الاستغناء عنه ونضع فيه أيضاً أية موارد إضافية من الحوافز في الأجور الإضافية ومنحة الحكومة في الأعياد وغيرها. ونسعد كثيراً كلما رأينا المظروف ينتفخ ويقترب من الهدف! وكم تكون فرحتنا حين يكتمل المبلغ المطلوب ثم نحمل المظروف إلى محل الموبيليا وندفع ثمن غرفة النوم ونحس أننا أنجزنا شيئاً كبيراً في حياتنا. وبهذه الطريقة حققنا نجاحات كبيرة. وبنينا أهرامات صغيرة نعزز بها في حياتنا فأدخلنا طفلينا مدرسة خاصة راقية ونشتري ملابس لائقة للشتاء والصيف، ونقضي كل عام أسبوعين في أحد المصايف عن طريق الرحلات التعاونية للشركة التي أعمل بها، وأكملنا تأثيث شقتنا. واشترينا التلفزيون الملون.

وتسألني بعد كل ذلك وأين هي المشكلة وأجيبك أنه ليس هناك مشكلة محددة.. لكن هناك "مصيبة" نزلت فوق رأسي بلا ذنب فلقد كانت هناك قطعة أرض فضاء ملاصقة للعمارة التي أقيم فيها سمعنا أن أحد الأغنياء قد اشتراها. وبدأ البناء فيها. وخلال سنة واحدة أقيم فوقها قصر فخم وطوال فترة البناء كان نعتقد أن الرجل يبني فندقاً من فنادق الدرجة الفاخرة ونتوجس خيفة من افتتاح الفندق والضجيج الذي سوف يحدثه فندق يتردد عليه النزلاء في هذه المنطقة الهادئة، إلى أن انتهى البناء والديكور وبدأ التأثيث فبدأ الشك يساورنا في أن ما يقام بجوارنا هو فندق جديد فلقد بدأت سيارات محلات الأثاث الكبرى تأتي كل يوم محملة بأثاث لا يمكن أن يكون أثاث فندق مهما كانت درجة فخامته، صالونات

مذهبة وبالصدف وبرؤوس الحيوانات وانترهات لا حصر لها.. وغرف نوم دائرية وبيضاوية وبكل الأشكال.. وحمامات بكل الألوان سألنا ذات يوم حارس العمارة الريفي وهو من أقارب صاحب البناء فقال الرجل ببساطة إن المعلم يبني " داراً " له ولأولاده.

المهم انتهى البناء والتأثيث وجاء يوم الافتتاح وفوجئنا بحديقة القصر مزدحمة بالمعلمين والأقارب وجاءوا بعدة عجول ذبحت على باب القصر وغمس أحد الاتباع يديه في دم ذبيحة ثم طبع كف يده على باب الفيلا وعلى حائطها الخارجي كأنه يقول لنا ياناس ياشر كفاية قر.

واستقر الجيران في قصرهم بجوارنا وبدأ عذابنا! وبالرغم من أن مرحلة التأثيث قد انتهت منذ زمان إلا أن سيارات المحلات الكبرى تأتي كل عدة أيام تحمل ثلاثيات بارتفاعات لم نرها في الأفلام وأجهزة تليفزيون وأجهزة ستريو وأجهزة فيديو وشرانط فيديو بالصناديق وكاميرات سينما وأجهزة عرض سينما.

وكل شيء بالكوم.. أما الملابس فلا أعرف متى يلبسون كل هذه المشتريات التي تحملها سيارات النقل وهم يعيشيون في حالة مهرجان مستمر حفلات غداء وحفلات عشاء.. وخروج في صف سيارات إلى المسارح والملاهي، أما حفلات الغداء فحدث عنها ولا حرج سيارات عليها اسم أكبر جزار في مصر تأتي لتفرغ الذبائح وسيارات عليها اسم أكبر محلات الحلوى تأتي لتفرغ التورتات والحلويات. وسيارات نقل تأتي لتفرغ 50 أو 60 بطيخة من حجم الفيل. وحفلات عيد ميلاد.. وعيد زواج.. وعيد أي شيء ومطربون ومطربات وفرق موسيقية كفرق العوالم تصدح بأغان سوقية عالم عجيب.. وضيوفه أعجب والشارع كله يهيص كلما كانت هناك حفلة منادون خصوصيون للسيارات ينظمون المرور ويرتبون وقوف السيارات.. وأتباع يقفون على باب القصر وناس يتجمعون ليتفرجوا مذهولين على أيام وليالي ألف ليلة وليلة، ومن سوء حظنا أنهم يفعلون كل ذلك في الحديقة تحت أنظارنا.. ثم هل تصدق أن لهم مقاول زبالة مخصوص يأتي كل يوم ليحمل بسيارة أطنان الزبالة الفخمة ويرفض الاقتراب من زبالتنا؟

ومرة ثالثة ستسألني وماذا يضريك في كل ذلك وسأقول لك ماذا أضرنني بالفعل، أضرنني الكثير يا سيدي - وخسرت الكثير بالفعل ستقول لي ما دخلك في ذلك، وسأقول لك إن لي دخلاً كبيراً في ذلك إن لم يكن بإرادتي فبغير إرادتي فقد كنت أعيش سعيداً قبل هذه الجيرة السعيدة ولكنني لم أعد كذلك وإذا لم تصدقني أرجو أن تزورني وسأصحبك إلى شرفة مسكني لترى بعينك ما يجري بجواري وسأترك لك بعد ذلك الحكم. الأسرة التي سكنت بجواري عائلها رجل.. معلم.. مازلت أعجب من أين جاء بهذه الرغبة المتأججة للاستمتاع بالدنيا.

سمعت من الحارس أنه بدأ حياته بائعاً سريعاً في بلدة خارج القاهرة ثم تاجر في كل صغير.. ثم في محل كبير ثم خلال 10 سنوات فقط لا غير تحول من تاجر كبير إلى مليونير يستطيع أن يبني فيلا لا يقل ثمنها عن عدة ملايين. وليست هذه هي القضية.. لكن القضية هي أسلوب حياة الجيران الجدد فهم يركبون 3 سيارات

مرسيدس من نوع. التمساحة. وإلى جوارها عدة سيارات صغيرة. فرط. للبنات
الصغيرات وهم يفتحون الستائر في الصباح فتتشعلق سيدات العمارة ورجالها -
وشرفك - يتفرجون على ما يظهر من خلف الزجاج من التحف والرياش
والنفائس.

بعد وصول جيران الهنا إلى حيننا فقد خسرت إحساسي بالتفوق والامتياز وبأن
المستقبل مفتوح أمامي لأني مهما صنعت ومهما تعبت وخدمت عملي بإخلاص لن
أحقق واحدا على مليون مما أراه كل يوم.. وخسرت هدوء نفسي وإحساسي
بالرضا عن حياتي وعن بيتي وأسرتي .. لأني وجدت نفسي بدون إرادة موضوعا
موضع المقارنة الظالمة مع من لا طاقة لي بهم. وخسرت إحساسي بأني أنجزت
شيئا أفخر به في حياتي.. وقد كنت أحس بهذا الإحساس حتى لو عدت إلى بيتي
حاملا بطيخة وأسعد كثيرا بفرحة أطفالي بها. بل لن تصدقني لو قلت لك إنني والله
العظيم لاحظت أن صوتي بدأ يخفت عندما تطلب مني زوجتي طلباً ما.. وكنت قبل
ذلك أقول لها بكل ثقة انظري ماذا فعلت لك.. أما الآن فأصبحت نفسي " مكسورة
" لأني أعرف أنها ترى ما أراه ومن حقها كإنسانة أن تضعف وتطلب. أما أكثر ما
ألمني في كل هذه القصة فهي هذه العبارة الساذجة التي أشرت إليها في أول
الرسالة.. والتي قالها لي ابني اليوم ونحن في الشرفة نتفرج على مهرجان جديد
من المهرجانات المستمرة. لقد قال لي ببراءة ليه يا بابا ما عندناش فيللا زي
دي.. ولا عربيات كثير وفلوس كثير زي الناس دول " فقل لي بربك ماذا أقول له..
وماذا أقول لنفسي الأمانة بالسوء؟" .



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هذه هي الرسالة التي نقلتني فجأة إلى هذا العالم العجيب وهذه المشكلة الأكثر عجباً. إنني يا صديقي أشفق عليك مما تعانيه وأفهم تماماً ما تشعر به من إحساس بالعجز والاحباط واللاجدوى بسبب هذه الصورة الجديدة للحياة التي اقتحمت عليك حياتك الهادئة، وكادت تفسدها عليك فكل أحاسيسك هذه أحاسيس مشروعة ومفهومة ولا يجدي هنا أن أقول لك ماذا يهملك من الأمر ماداموا لا يعتقدون عليك في شيء.. فالحق أنهم يعتقدون بالفعل على حياتك الهادئة وعلى مثلك العليا وقيمك بهذا الإنفاق الاستفزازي تحت بصرك وبصر أسرتك.. ومن هنا تأتي أهمية إدراك الأثر الاجتماعي للسفه والإنفاق الاستفزازي وسط بحيرة من الحرمان.

والمشكلة أن معظم أثرياء الطبقة الجديدة لا يدركون القيمة الأدبية والاجتماعية للمال ولا أثر هذا الإنفاق السفه على حياة الآخرين.. بدعوى أنه مالهم وهم أحرار فيه. وهذا هراء لأنك لا تستطيع أن تحرق ألف جنيه بالنار أمام عين جائع بغير أن تخشى على حياتك منه رغم أنه مالك " وأنت حرفيه " لأنك أذيت بذلك آخر يتطلع إلى جنيه واحد منه بحرقه أمامه. ولو اعتدى عليك هذا الجائع ساعتها لقدرت المحاكم هذه الظروف واعتبرتها ظرفاً مخففة للعقاب، لذلك تتضاعف أهمية السلوك الحضاري والتصرف الحضاري في المال. لكن من يقرأ ومن يفهم؟

وبرغم كل ذلك أقول لك يا صديقي إن السعادة تنبع من داخل الإنسان ولا تأتي إليه من خارجه. وأن العقلاء من الناس من يرون الأمور في أوضاعها الطبيعية.. ويدركون أن لكل إنسان حياته.. ولكل إنسان نصيبه من الدنيا.. ومن لا ينشغلون بمراقبة الناس ومن راقب الناس مات غمماً كما يقولون.

والسعداء من الناس من يرون ما في أيدهم ويرضون عنه ويشكرون الله عليه ثم يسألونه من فضله المزيد.. ولا بأس في ذلك فالله يحب أن يسأل. لكن بعض الناس يا صديقي لا يرون إلا ما في أيدي غيرهم.. ولا يرون إلا ما ينقصهم ويتعذبون به.. وهؤلاء عذابهم طويل لأنه لا حد لاحتياجات الإنسان ولا نهاية لها. ثم إنك نسيت في انشغالك بمراقبة هؤلاء كل ما لديك وهو كثير كثير وينبغي أن تشكر الله عليه.. فلديك حياة عائلية موفقة وزوجة مخلصه وعاقلة وطفلان تسعد بهما النفس.. وعمل مرموق موفق وحياة اجتماعية معقولة يحلم بها مئات الآلاف وصحتك جيدة والحمد لله أنت وأسرتك.. فإذا تريد أكثر من ذلك؟



بنت الباشا

لأول مرة. أجرب هذه الطريقة ولعلها تكون الأخيرة لأنني أختار عادة رسائل بريد الجمعة بعد جهد وتدقيق طويلين، أما في هذه المرة فلقد وضعت كومة رسائل بريد الجمعة أمامي ثم مددت يدي عشوائياً عليها فوقعت على هاتين الرسالتين الفريدتين.

تقول كلمات الرسالة الأولى أنا تلميذة بالصف الأول الثانوي كان جدي لأمي باشا.. أي باشا سابق ثم تغيرت الدنيا وضاعت الأرض وضاع العز منذ سنوات طويلة ولم أر منه شيئاً، لكنني سمعت عنه من أمي التي شهدت طفولتها بقاءه. وقد ضاع المال ونزلت أمي إلى ميدان الحياة، وعملت موظفة كتابية في إحدى المصالح الحكومية وتزوجت من أبي وأنجبنا ونشأنا بين أحضان أبوين صالحين يعملان كل جهدهما لتربيتنا وتعليمنا وإسعادنا وحياتنا تمضي عادية.. نعاني من متاعب الحياة كغيرنا، لكن يظل حياتنا دائماً الحب والتعاطف الأسري ونحيا تحت رعاية أبي الرجل الفاضل وأمي السيدة المؤمنة التي ربنا تربية بنت باشا سابق لأبنائها، والحمد لله على كل حال. تسألني طبعاً ماذا أريد.. ولماذا أكتب لك. إنني أكتب لك لأنني أريدك أن توجه رسالة في بريد الجمعة إلى أمي لأنها تقرأه كل أسبوع والحكاية أنني كنت نائمة ليلة عيد الفطر المبارك فصحوت من نومي قرب الفجر على صوت بكاء.. ونشيح فنهضت مفزوعة ثم تسللت من غرفة النوم على أطراف أصابعي لأعرف إيه الحكاية.. فرأيت أمي وراء الباب جالسة على الأرض في الصلاة على سجادة الصلاة رافعة وجهها ويديها إلى أعلى تكلم الله سبحانه وتعالى وتقول له: " يا رب.. يا من لا تظلم عنده الخلاق.. لقد كرمتني بنجاح أولادي فهل ترضى بالأا يفرحوا في العيد. إنهم في حاجة الملابس جديدة.. لكن العين بصيرة واليد قصيرة وأنت أعلم بحالنا.. يا رب".

سمعت كلماتها إلى الله وانسابت دموعي وخشيت أن تراني فتخجل مني ويزداد همها " فعدت إلى فراشي وقلبي حزين وبقيت في الفراش بلا نوم حتى الصباح. وفي الصباح نهضنا من فراشنا وتبادلنا التهنئة بالعيد.. وأنا ألمح في عينيها نظرة منكسرة.. لذلك فإنني أريد منك أن تكتب إليها رسالة تقول لها فيها إننا لم نطلب منها ملابس جديدة في العيد.. ولم نطلب منها حتى العيدية وأنا نعرف حالنا كويس وأن دخلنا يدوب بيكفينا لآخر الشهر.. وقل لها كتر خيرها هي وبابا إنهم بيعلمونا ويبصرفوا علينا ويبحبونا وبيتعبوا كثير علشان يسعدونا.. وأرجوك تقول لها كمان إن إحنا راضيين بحياتنا والحمد لله.. وإنه مهما حصل فهي في نظرنا بنت الباشا.. وحتفضل كده على طول... وشكراً لك".



ولكاتبه هذه الرسالة أقول:

وأتوقف طويلاً أمام هذه الرسالة.. أتأمل في خيالي صورة الأم الجالسة على سجادة الصلاة تبكي وتناجي ربها في ليلة العيد وابنتها ترقبها خفية.. ثم أستعيد كلمات الابنة المعبرة ببساطة وصدق عن حبه لهذه الأم الطيبة. وأشعر أنني عاجز عن توجيه الرسالة التي تطلبها مني الابنة إلى الأم. فإني مهما استجمعت الكلمات لن أستطيع أن أنسج كلمة أرق ولا أصدق مما كتبت هي عنها وإليها لكني فقط أقول للأم إن من نشأت أبناءها وسط متاعب الحياة وظروفها الخاصة على هذا الخلق الرضي الطيب القانع... هي أم عظيمة بلا جدال فهنيئاً لك يا سيدتي حب واحترام أبنائك لك وليتوج الله كفاحك مع زوجك بنجاح الأبناء دائماً واستكمال تربيتهم وتعليمهم، فلا شك أنك سوف تقدمين للمجتمع عناصر فاضلة إلى الحياة ولا تخصم منها وإذا كنت قد فقدت العز القديم فلقد عوضك الله عنه خيراً بأبناء صالحين محبين عطوفين.. وهو فضل لو تعلمون عظيم.





شريط كاسيت

وأمد يدي إلى رسالة منتفخة فأفتحها لأجد بداخلها شريط كاسيت على أحد وجهيه موسيقى غربية حالمة.. أما على الوجه الآخر فأسمع هذه الكلمات: لقد قررت أن أرسل إليك رسالة مسموعة لأن خطي وحش ولأني أستطيع أن أعبر عن مشاعري هكذا أفضل أنا يا سيدي فتاة عمري 20 سنة وأعمل في وظيفة أتقاضى عنها 100 جنيه في الشهر إلى جانب السكن وهو غرفة مفروشة بأثاث جيد مكون من سرير كبير نظيف ومائدة صغيرة أتناول عليها طعامي بالشوكة والسكين في مواعيد الوجبات، ودولاب يضم فساتيني ومصوغاتي وأحذيتي، ثم تليفزيون صغير أبيض واسود ورايو كاسيت أسمع منه الموسيقى وأميل إلى سماع الموسيقى الهادئة الغربية وعندني مجموعة من الشرائط لمطربين عالميين أحبهم وفي عملي فإني أتناول وجباتي كاملة على نفقة العمل وأنا فتاة مذهري كويس.. يقولون عني إني جميلة ورشيقة " وشيك " جدا في ملابسني بشهادة كل من يعرفني. وقد تعلمت لكني لم أحصل على الإعدادية.. وأقرأ جيدا وأقرأ بابك بانتظام.. لذلك كتبت إليك لأسألك عن رأيك في مشكلتي... في المشكلة العامة التي أمثلها.

المشكلة أنني أحب عملي جدا وأحترمه جدا... وأرى فيه نفسي. كما أن أصحاب العمل يحترموني جدا ويعاملونني معاملة طيبة جدا. لكن ما يعذبني هو أن " الناس " وخاصة الناس " الشعبيين " منهم لا يحترموني. ولا يحترمون عملي!.

فأنا يا سيدي أعمل مربية في بيت وقد عملت في هذا العمل منذ 11 سنة وأحبته جدا وأنا أنهض في الصباح سعيدة فأؤدي أعمال البيت بنشاط ثم أتولى إطعام الطفلة الصغيرة الوحيدة. وإعداد ملابسها ثم تخرج السيدة ربة البيت إلى عملها ويخرج رب البيت إلى عمله.

ويصبح البيت مملكتي فأدير شئونيه وأتولى رعاية البنت وإطعامها طعام الغداء.. حتى يعود الزوجان فيجدا البيت نظيفاً مرتباً والطفلة نائمة في سريرها وهما يحبانني ويحترمانني ويثنيان على عملي دائماً ولي إجازة كل أسبوع، وساعات عملي من 7 صباحاً إلى 7 مساءً وبعدها أنا حرة أستطيع أن أذهب إلى أي مكان وأستطيع المبيت في بيت شقيقتي والعودة في الصباح، لكن ما يعذبني هو نظرة الطبقات الشعبية لهذا العمل أنني في نظرهم خ... أي هذه الكلمة الفظيعة التي لا أستطيع أن أنطقها والمكوجي والزبال والبواب يعاملونني باستهتار عجيب مع أن رب البيت وكل أصدقائه وأقاربه يعاملونني باحترام وعلى قدم المساواة.. وما يعذبني أكثر أنني إذا تعرفت بأحد بفتاة أو بشاب عاملني في البداية باحترام لمذهري ولباقتي ولبسي وجمالي أساوري فإذا سألني ماذا تعملين.. وأجبتته بصراحة لمحت آثار الصدمة في عينيه.. ثم لا يلبث أن تتغير نظرتي لي.. وغالباً ما يسرع بالفرار.. والعجيب أن هذا الشباب الذي يحتقرني يكون ساكناً في شقة في المساكن الشعبية.. ولا يجد ثمن تذكرة الأتوبيس لأن معاه دبلوم مثلاً ولقد أسهم التليفزيون والإذاعة في رسم هذه الصورة غير المحترمة لنا وأريد منك أن تقول

للناس إن هذه الصورة للشغالة التي تتدلع في الكلام وتقول. " حاضر يا سيدي .. غير موجودة. صدقتي والله العظيم غير موجودة.. إنني والله العظيم أفرض احترامي على الناس وتركت بيوتاً عديدة بسبب هذا الاحترام.. لكني أسأل لماذا يحاصرون من تعمل عملي بالنظرة الوحشة. وبعدم الاحترام ولماذا يرفض شاب فقير معاه دبلوم وأهله ناس " بساط " خالص أن يتزوج من مربية فيها كل الصفات التي يتمناها وتتقاضى راتباً أضعاف راتبه لماذا المربية وحدها محرومة من حقها في أن تذهب إلى الكوافير.. وفي أن تلبس ملابس شيك والله العظيم إن فيه مربيات بيتصرفوا ويتكلموا كويس جداً ومتعلمين.. لكن بيحترموا عملهم ويحبوه وأنا بحب عملي. ولن أتركه أبداً.. مهما قيل.. لكني أريدك أن تشرح للناس الحقيقة لكي لا يحتقروا من تعمل في نفس عملي.

ويتوقف الشريط الغريب الذي نقلني فجأة إلى عالم جديد لم أتلق منه من قبل أية رسالة. ويشدني في الشريط صوت صاحبة الرسالة المعبر والمختنق بالبكاء في أكثر من موضع.. ثم اللهجة الراقية حقيقة بلا مبالغة في الحديث والكلمات المهذبة التي تنطق بها صاحبة الرسالة. أما أول انطباعاتي عنه فهو أنه يثير مشكلة حقيقية من مشكلات مجتمعنا.



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أنت يا صديقتي على صواب.. ومجتمعنا على خطأ... لكنه خطأ في طريقه إلى الاختفاء يوماً ما مع انتشار الوعي بقيمة العمل الشريف مهما كان نوعه وعملك هو عمل شريف. وعمل مهم وضروري.. ولعله أكثر فائدة من أعمال كثيرين ممن يرتدون البدل والبنطلونات. فالتربية عمل مفيد وراق وضروري وأعمال البيت أيضاً أعمال ضرورية ومهمة وتزداد الحاجة إليها يوماً بعد يوم، وعملك في المجتمعات المتحضرة عمل شديد الاحترام وتوَجَّر عنه المربية بالساعة.. وتذهب إليه بسيارتها الخاصة.. وتتمتع باحترام معارفها وأهلها وجيرانها.. وسوف نصل إلى هذا تدريجياً مع الزمن ومع زيادة الوعي بقيمة العمل وبشرفه بدليل أن أصحاب الأعمال ومجتمعهم يحترمونك ويحتاجون إليك في حين مازال الوعي أقل من ذلك في المجتمعات الأقل تعليماً. أما قلقك من نظرة الشباب إليك فأنت محقة في ذلك وإن كنت واثقا من أن بعضهم يحسدك على حياتك وراتبك لكنها في النهاية

مشكلة ستحل مع الزمن.. كلما ازداد الإيمان بأن الناس جميعا متساوون أمام الله يدخلون الدنيا عرايا ويغادرونها عراة وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بدينه وخلقه وأهمية ما يقدمه للمجتمع من خدمات، فواصلى طريقك وسوف تجدين شريك حياتك الذي يقدرك ويحترمك حين يأذن الله بذلك.



أصل وصورة!

قد يرى البعض أن هذه الرسالة لا تمس مشكلة جادة من مشاكل حياتنا، لكنني مع ذلك أستجبت لرجاء صاحبها في نشرها وطلب الرأي فيها.. ليس فقط لأن كاتبها شيخ في الثمانين من عمره ورجاء الشيوخ لا يرد كما يقولون. وإنما أيضاً لأنها تحكي عن صورة غريبة من صور الحياة التي يخطئ الإنسان كثيراً إذا ظن يوماً أنه عرفها تماماً وفهم كل ألغازها:

تقول كلمات الرسالة:

دفعني للكتابة إليك أنني لم أجد فيما أقرأه في مآسي بريد الجمعة مشكلة مشابهة لمشكلتي.. لذلك فقد قضيت على ترددي وقررت أن أكتب لك راجياً منك في البداية ألا تسخر من مشكلتي.. فأياك يا بني أن تسخر من أحد فلعلك تحس يوماً بإحساسه إذا وضعتك الظروف في مثل ظروفه، والحق أنني لا أقصدك شخصياً بذلك وإنما أقصد من قد يقرأ رسالتي فيعجب منها ولأدخل في المشكلة مباشرة فأقول لك:

إنني رجل قاربت الثمانين من العمر، وفي المعاش منذ 16 سنوات بعد وظيفة محترمة للغاية، وأتقاضى معاشاً مناسباً، وأنا والحمد لله في صحة جيدة، وقد توفيت زوجتي منذ سنوات طويلة ورفضت أن أتزوج من بعدها لكي لا أتسبب في أية آلام لأبنائي وبناتي وقد توليت تربيتهن تربية حسنة وشبوا جميعاً وتفرقوا في أنحاء الوطن كل في عمله وحياته أو في بيت زوجها ووجدت نفسي وحيداً بعد رحلة العمر لا أجد أنيساً ولا ما يخفف عني وحشة الوحدة. روتين يومي لا يتغير أبداً، وهو روتين ممل جداً وأكاد أعيش في سجن انفرادي بشفتي، وقد فكرت في حالي وشكوت إلى زملائي من أصحاب المعاشات فتقدم كل منهم باقتراحه لمواجهة مشكلة وحدتي، فاقترح أحدهم أن أتزوج فرفضت لأنه اقتراح مستحيل. واقترح آخر أن أتبنى فتى أو فتاة فرفضت لأنه اقترح غير مأمون العاقبة ولا أراه مناسباً وأنا رجل متمسك بتعاليم ديني، واقترح ثالث أن التحق بدار للمسنين والعجزة فأجد فيها من يونس وحدتي فرفضت أيضاً لأنني لا أتصوره حلاً مناسباً لمشكلتي. وخلال هذه الدوامة شاهدت فجأة فتاة أو سيدة تقترب من الأربعين شديدة الشبه بابنتي الغالية في ملامحها وملابسها المحتشمة. فارتاحت لها نفسي وشعوري وعلمت بعد قليل أنها سيدة متزوجة ومحافضة على نفسها وزوجها، لكنني لم أتمالك نفسي تجاهها. إذا قلت إنه الحب فلن أقول إن ذلك ليس صحيحاً. لكنه إن شئت حب شفوي أو رومانسي كما يقول شباب هذه الأيام، فلقد وجدت نفسي أسيراً لهذه السيدة فاقتربت منها وتفاهمت معها على أن تعتبر نفسها ابنتي، وأن أعتبرها ابنة لها كل حقوق ابنتي.. وكأنها ابنتي التي تعيش مع زوجها في مدينة أخرى، وكانت شروطي عليها هي أن أزورها في بيت أهلها لأراها كل فترة أو أن التقي بها في مكان عام محترم كالنادي مثلاً، أو كازينو عام محترم ولو مرة كل شهر. وأن تقبل مني بعض الهدايا في المناسبات حتى أحس ولو كذباً بأنها ابنتي، أو أن تزورني في مسكني مع بعض أهلها لتبدد وحشتي في المناسبات غير أن بعض أهلي وأنا كبيرهم يعارضون في كل ذلك محافظة على احترامهم وحرام

الجيران، وأنا من ناحية أخرى لا أرى بأساً في كل ذلك، بل وأراه أفضل كثيراً من وجودي وحيداً في سجن انفرادي بشقتي.. وأراه أفضل من إقامتي في دار المسنين والعجائز وأراه أفضل من الانتقال، للإقامة مع أحد أبنائي أو مع ابنتي حيث يعيشون خارج القاهرة، لأنني لا أحتمل ضجيج أحفادي.. ولا أحتمل ترك القاهرة والابتعاد عن أطبائي. وأريد مشورتك في كل ذلك بغير سخريّة فهل تفعل؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

نعم أفعل يا سيدي وبغير سخريّة إن شاء الله لأنني لا أسخر أبداً من آلام الناس ولأنني اعتدت أن أحترم آلام الآخرين وأن أتعامل معها بجديّة مهما بدت للبعض تافهة أو ثانوية.. وأنا أرى يا صديقي أنك في محنة كبيرة فأنت مهما حاولت أن توهم نفسك بمسألة البنوة الخيالية هذه فإنك في رأيي تعاني من حالة غرام شديدة وفي سن خطرة ولا عجب في ذلك رغم غرابته فكل إنسان معرض لما تعانیه وفي أي مرحلة من العمر مادام بين جانبيه خافق. لكنني أنصحك بنسيان هذه القصة كلها وباحتمال وحدتك أو باختيار أي بديل آخر ولو كان الزواج من أرملّة في عمر مقارب لسنك، وبعض الداء أهون من الدواء! والدواء الذي تتداوى به من وحدتك الآن يا سيدي خطر، ويعرضك لعواصف وزلازل لا تليق بك في هذه السن ولا تحتملها. وأهونها هو استنكار أهلك وأبنائك ومجتمعك. وتعريض نفسك لما تكره. ومصادمة المجتمع في قيمه وأعرافه ليست من الحكمة فمصادمة قيم المجتمع الذي تعيش فيه بشدة كما تفعل الآن يعرضك لمتاعب أنت في غنى عنها، وليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. وليس كل ما تهفو إليه النفس مما يقبله الشرع والمجتمع، لذلك أمرنا جميعاً بمغالبة النفس الأمارّة بالسوء، ولو انقاد كل إنسان لما تهفو إليه نفسه لتحول المجتمع إلى غابة ينتزع فيها كل إنسان ما تحبه نفسه

وترضاه مهما كان مخالفا للدين وللقيم، لذلك فإن ما تطلبه قد يكون مقبولا في مجتمعات أوروبية مثلاً، لكنه ليس مقبولاً في مجتمع كمجتمعنا لا يتقبل هذه العلاقة ولا يفهمها، إلا كعلاقة غير سوية مع سيدة متزوجة، ناهيك عن احتمالات العبث والرغبة في الاستفادة من الجانب الآخر.. وهو احتمال قائم بكل أسف! لذلك أنصحك بأن تعرف نفسك أولاً ومن عرف نفسه جيداً عرف الناس جميعاً وفهم مشكلته الحقيقية، وأنصحك بالألتهادى وراء أية أوهام " أبوية " في الموضوع كله فالأبوة هنا بريئة من هذه القصة كلها، خاصة وأن ابنتك الحقيقية الغالية كما تقول عنها على قيد الحياة والحمد لله... وزيارتك لها أو زيارتها لك ليست مستعصية.. فلماذا تبتعد عنها وتبحث، عن صورة لها.. ولماذا تبحث عن الصورة أصلاً ولديك الأصل.



ابن الأصول!

ترددت كثيراً في أن أكتب إليك هذه الرسالة وسوف تعرف السبب بعد قراءة سطورها، فالحق أنه من الصعب جداً أن يكتب الإنسان عن عيب جوهرى في شخصه، وقد استجمعت شجاعتي لكي أكتب لك عن مرضي العضال لأني لم أعد راضياً عن نفسي بسببه وقد تتصور أنني مريض بمرض عضوي، لكن الحقيقة غير ذلك فأنا والحمد لله سليم الجسم وقد أكون سليم النفس أيضاً لكنى مريض بشيء عجيب جداً هو " قلة الأدب ". وقلة الذوق أيضاً!

وأرجو ألا تسخر مني فأنا جاد فيما أقول. ولا أستطيع أن استشير أحداً في هذه المشكلة، وقد لاحظت أن كثيرين قد أصبحوا يعانون من نفس مرضي.. وأن مرضاه قد امتدوا إلى ما نسميه بطبقة المثقفين، فأنا أعمل في مركز مرموق وأنا جامعي مثقف ولم يواجهني أحد من الذين حولي من قبل بحقيقة عيبي لكنى لاحظت دهشة وذهول من حولي حين يسمعون هذه الألفاظ النابية الجارحة تصدر عن هذا الشاب المثقف ابن الأصول كما يقولون!

والمشكلة هي أنني لا أستطيع السيطرة على نفسي فتندفع من فمي أقذع ألفاظ السباب مع العلم أنني نشأت في بيئة صالحة. وكنت إلى عهد قريب إنساناً مهذباً أو على الأقل إنساناً طبيعياً. ثم انقلبت فجأة إلى هذا الشاب البذيء وأعترف أنني وجدت متعة بالغة في استعمال تلك الألفاظ النابية. ثم أصبحت هذه الكلمات وهذه الألفاظ هي طابع شخصيتي الآن. ولن أطيل عليك.. لكنى أسأل هل أجد لديك علاجاً لهذا الداء.....



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

أثارت هذه الرسالة دهشتي وعجبي في نفس الوقت فهي المرة الأولى التي أتلقى فيها رسالة من مريض بقلة الأدب كما يقول.. والمريض هنا كما يقول هو شاب مثقف خريج إحدى الكليات وليس هذا وجه العجب وحده فالسوقية، والكلمات

النايية قد أصبحت "فولكلورا" شعبيا في قاموسنا بكل أسف مع هبوط الذوق العام وانحسار القيم في أوساط عديدة لكن ما أثار عجبي بحق هو قوله عن نفسه إنه كان حتى فترة قريبة شخصا مهذباً أو طبيعياً ثم انقلب فجأة إلى مريض بقلّة الأدب يجد متعة غريبة في استخدام ألفاظ الشتائم والكلمات النايية! ولا معنى لذلك يا صديقي في تقديري سوى أنك قد وجدت نفسك فجأة في وسط يستخدم فيه بعض زملائك ألفاظ السباب الفاحش كروتين يومي، فترددت أولاً في مجاراتهم ثم أصابتك العدوى، وتفاقت حالتك لأنك تستخدم هذه الألفاظ غالباً مع من لا يستطيع أن يردها إليك بأحسن منها، وأغراك ذلك بالاستمرار وهنا خطورة عامل البيئّة التي تعمل فيها، فالإنسان هو ابن بيئته ووسطه وهنا أيضاً خطورة استمرار واستمرار الخطأ لأنك تواجه بهذه الهواية من لا يردعك عنها، وهذه مصيبة كثيرين ممن يملكون السلطة على البسطاء، أظنني عرفت ماذا تعني يا صديقي رغم أنك حاولت التمويه عليّ بقولك إنك جامعي فأنت جامعي فعلاً تحمل الشهادة العالية التي تحملها لكنك جاهل بالتأكيد في حسن معاملة الناس، وفي احترام الآخرين فإذا كانت تستمتع بإيلام الآخرين فأنت ولا شك مريض النفس، وإذا كنت ترغب في العلاج فليس لدي علاج لك سوى أن تتذكر دائماً هذه الكلمة إذا دعتك قدرتك على سب الآخرين فتذكر قدرة الله عليك.

إنني في النهاية أحيي فيك صدقك مع نفسك بكتابتك هذه الرسالة وطلبك لعلاج هذا الداء... لكن دواعك لا بد أن ينبع من نفسك أنت أولاً فإذا كنت راغباً فيه فسوف تتخلص من هذا المرض العجيب وإذا لم تكن راغباً رغبة صادقة في ذلك فلن تشفى منه وليس ذلك بغريب فقديماً قيل: لكل داء دواء يستطب به.. إلا الحماسة أعييت من يداويها.



نهر العطاء

استفزتني هذه الرسالة، فدفعتني إلى نشرها على الرغم من أنني تناولت من قبل المشكلة الأساسية التي نتحدث عنها وقلت فيها رأيي بوضوح تام.. لكن هذه الرسالة "الاستفزازية" أرغمتني على تناولها مرة أخرى وأرجو أن تكون الأخيرة!

تقول كلمات الرسالة:

"سأبدأ قصتي التي أريد أن أقرأ رأيك فيها في أسرع وقت، بالرجوع إلى الوراء قليلاً، فمنذ عدة سنوات مرضت شقيقتي الوحيدة فجاءت طيبة شابة لفحصها.. وقامت بمهمتها على خير وجه وعقب انتهاء الكشف جلست من الطيبة بضع دقائق لتتحدث عن مرض شقيقتي، وتناقشنا في مرضها وجرى الحديث بيننا بالإنجليزية والفرنسية وكانت تتكلمها بطلاقة، كما كان تخصصها في عملها الحكومي يتشابه مع تخصصي في بعض الأوجه، مما أوجد مجالات للحديث بيننا والحق أنني وجدت فيها إنسانة رائعة جميلة، ومن أسرة محترمة ووالدها يشغل مركزاً مرموقاً، وتكررت زيارتها وشجعتني شقيقتي على التقدم لخطبتها، فخطبتها وكنت في هذه الفترة أعد للماجستير على نفقتي الخاصة، ثم واجهت طارئاً استنفد كل مدخراتي إلى جانب أنني العائل الوحيد لوالدتي، فاصطدمت بمشكلة عجزني عن توفير نفقات الزواج والمهر بعد نفاذ مدخراتي، فصارحتها بما حدث وبحقيقة الموقف فكان ردها هو أن المهم هو حصولي على الماجستير لمستقبلي أما نفقات الإعداد للزواج فهي على استعداد لدفع كل مدخراتها لشراء الجهاز ودفع النفقات على أن أعتبر ذلك ديناً عليّ رده عند الميسرة، وتم ذلك بالفعل وفي سرية تامة، فلم يعلم بذلك أحد من أسرتها وتزوجنا وعشنا أياماً سعيدة بكل معنى الكلمة وبعد عام من زواجي رشحنا نحن الاثنين للحصول على الدكتوراه من إحدى الجامعات الأجنبية بالخارج.. وواجهتنا مشكلة الأثاث الذي اشتريناه منذ عام واحد ماذا نفعل به، لكنها وبشجاعة تذكر لها طلبت مني السفر وحدي في البداية لأجهز شقة نقيم فيها ولأعمل على أن تكون دراستنا في نفس الجامعة لكي نكون معاً دائماً على أن تتولى هي التصرف في أثاث البيت، وسافرت بالفعل ولحقت هي بي بعد أن باعت أثاث بيت الزوجية، وبعد سفري تعثرت أنا في دراستي التحضيرية للدكتوراه فقد كانت الدكتوراه التي رشحت لها في فرع مخالف لتخصصي. فشددت زوجتي أزمي وساعدتني معنوياً وأدبياً ثم سعت لدى مدير البعثة وكان من أقاربها لتحويل بعثة الدكتوراه التي رشحت لها إلى موضوع تخصصي. وكان الرجل كريماً فوافق. وتحطمت عقبة أخرى مهمة في حياتي فاستطعت الحصول على درجة الدكتوراه، وحصلت عليها هي أيضاً في نفس الوقت، وخلال هذه الفترة ونحن في الخارج ووسط هذه الحياة السعيدة.. والمشاركة الكاملة في الدراسة والبيت وبرامج الفسحة في عطلة نهاية الأسبوع، تنبهنا إلى أننا لم ننجب أطفالاً.. وإلى أن زوجتي لم تحمل، فقامت من جانبها بعرض نفسها على عدة أطباء لأمراض النساء فلم يجدوا بها عيباً، ثم طلب أحد

أطبائها الكشف عليّ أنا فرفضت لأنني متأكد من أنني سليم تماماً، وانتهت أيام البعثة بذكرياتها الجميلة وعدنا للقاهرة فواجهتنا شقيقتي الوحيدة بثورة عارمة بسبب عدم الإنجاب.

وعشنا بعد عودتنا من الخارج عدة سنوات في منتهى السعادة لا يعكر صفونا إلا تدخل شقيقتي في حياتنا بخصوص موضوع الإنجاب، أما والدتي يرحمها الله فكان من رأيها أن زوجتي لا تعوض، لكن شقيقتي ولديها غابة من الأطفال فقد قلبت حياتنا جحيماً بسبب الإنجاب وأغررتني بالزواج في السر من أخرى، وعرضت عليّ فتاة خريجة أحد المعاهد المتوسطة فاتها قطار الزواج على استعداد لقبول أن أتردد عليها يومين كل أسبوع فقط، وأردت التحايل على زوجتي لإبلاغها بالخبر بطريقة ملتوية فقلت لها إنني سأغيب في عملي يومين كل أسبوع فقلت لي إنها ستمر عليّ في عملي بعد انتهاء عيادتها لتطمئن عليّ فلم أجد مفراً من إبلاغها بالأمر، فطلبت الطلاق وقالت لي إنها ستتنازل عن كل حقوقها تجاهي مقابل الطلاق، فاستكتبتها ورقة تفيد أنها حصلت على جميع حقوقها، وانفصلت عني في المعيشة في حجرة منفصلة لحين حصولها على الطلاق لأن الشقة التي نعيش فيها ورثتها عن والدها.

وعلى الرغم من أننا مازلنا نعيش في نفس الشقة فإنني مازلت حائراً ماذا أفعل؟ فهي الزوجة التي شرفنتني في الداخل والخارج... وهي الزوجة التي وقفت إلى جانبي في أحلك الظروف. فهل إنجاب طفل يساوي التضحية بها؟ إنني أرجو أن أقرأ ردك مهما كان قاسياً وأعدك أن أسير على هداه وأن أعمل بما تشير به عليّ.

هذه هي الرسالة التي أرغمتني على إعادة تناول هذه المشكلة الشائكة ولأنني قد كتبت عنها من قبل فلن أطيل في ردي على هذه الرسالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

يا صديقي إنني لا أعرف تخصصك العلمي على وجه التحديد، ولا أعرف في أي مجال من مجالات العلم والطب أنت دكتور.. لكني أعرف بالتأكيد أنك دكتور وبدرجة الامتياز في فن الجحود والبطر!!

يا دكتور أعطتك الدنيا زوجة رائعة كهذه الزوجة.. جميلة ومن أسرة طيبة ومحبة ومخلصة وقادرة على العطاء.. بل هي نهر من العطاء المستمر لك منذ عرفتك من تقديمها ثمن الجهاز لك في السر لكي تحفظ عليك كرامتك أمام أسرتها، إلى الوقوف بجوارك في أغلب الظروف إلى مساندتها العلمية والمعنوية لك في دراستك.. إلى سعيها لدى قريبها مدير البعثة لتعديل بعثة الدكتوراه لك لكي لا تعود هي بالدكتوراه وتعود أنت بالخيبة والفشل، إلى توفير كل أسباب السعادة لك.. إلى التفاهم والتقارب الفكري والعلمي بينكما الذي يسمح لكما بتبادل الخواطر والأفكار بالإنجليزية والفرنسية! حتى الشقة التي تعيش فيها الآن في حياة منفصلة في انتظار الطلاق هي شقتها التي ورثتها عن أبيها.. إلى كل شيء فحتى عند الخلاف كانت كريمة ومعطاءة فقررت التنازل لك عن كل شيء، فلا تتورع بعد كل ذلك من أن تستكتبها ورقة تتنازل فيها عن حقوقها لك وهي التي لم تستكتبك ورقة مثلها حين دفعت من مدخراتها ثمن الجهاز، ولعلك لم ترد دينك هذا إليها حتى الآن.. لكنه على أي حال دين بسيط لا يقاس بأي حال من الأحوال بديونها الأخرى عليك.. ثم تفكر بعد كل ذلك يا دكتور، يا من وصلت إلى أعلى درجات العلم في الاستجابة لوسوسة شقيقتك أو لوسوسة نفسك بمعنى أصح، تفكر في الزواج مرة أخرى من فتاة عادية فاتها قطار الزواج وليس فيها ما يغري بالإقدام على هذه الحماقة.. فحتى الإجاب منها ليس مضموناً وفي علم الغيب أليس هذا جحوداً لا مثيل له لعطاء هذه الزوجة الرائعة؟.

أو ليس هذا بطراً بل كفراً بالنعمة التي غمرتك بها الدنيا إنك غارق يا صديقي في نعيم لم تحسن تقديره.. لأنك إنسان والإنسان لا يرى غالباً ما بين يديه من أسباب السعادة ولا يتحدث بنعمة الله عليه غالباً.. لكنه يرى فقط ما ينقصه دائماً.. ويولول له ويشكو من نقصه.. إنني لا أنكر عليك رغبتك في الإجاب.. لكن هل تساوي وحدها التضحية بهذه الحياة السعيدة وبهذه الزوجة الممتازة.. لقد تصورت أنك

تستطيع أن تجمع كل أسباب النعيم من طرفيه.. يا صديقي لا تتبطر على ما أنت فيه من نعيم ومزق الورقة التي استكتبت زوجتك لها.

وأطرق باب غرفتها واطلب صفحتها.. وتخل عن مشروع الزواج الجديد، واعتبر ما جرى مجرد ضعف بشري أرجو أن تقدره زوجتك الطيبة وتغفره لك.. لا لشيء إلا لأنك إنسان في النهاية وقتل الإنسان ما أكفره!!



امرأة محترمة!

منذ فترة طويلة وأنا أفكر في أن أكتب إليك لا لشيء إلا لأن أزيح عن صدري بعض همومه. وقد حزمت أمري وقررت أن أكتب إليك بعد أن قرأت رسالة فتاة من قاع المدينة لأروي لك قصة سيدة من قمة المجتمع فلعلّ فيها ما يفيد قراءك ويطلعهم على جانب آخر من جوانب الحياة.

أنا يا سيدي زوجة لرجل أعمال يعمل أو كان يعمل بمقاولات المباني تزوجته منذ 23 عاماً وكان ناجحاً جداً في عمله يكسب كثيراً وينفق أكثر نسكن في أرقى أحياء القاهرة وفي عمارة كل ساكنيها من علية القوم ونركب السيارات الفاخرة ونسافر إلى أوروبا، ونستخدم في منزلنا الشغالين والشغالات وأنا سيدة محترمة في وسطي مظهري محترم باحتشام. معاملات مع الناس راقية ومجاملة إلى أقصى الحدود أرعى بناتي بحنان وحزم وأشرف على دراستهن بنفسى، أما زوجي فهو الآن فوق الستين بثلاث سنوات رجل منظم في عمله يعطي كل شيء حقه ويجيد الإنجليزية والفرنسية بطلاقة ولأن زوجي كان يربح كثيراً فإني لم أهتم بمواصلة تعليمي بعد حصولي على الثانوية العامة وقبعت في البيت أشرف عليه وأنظم حياة زوجي، وكان البيت هو مملكتي فلم أفكر في العمل ومضت سفينة حياتنا هادئة لولا أن زوجي كان قد اعتاد أسلوب حياة حاربه بلا هوادة بلا جدوى لقد كان هناك من يقف في طريقي دائماً وهم هيئة المنتفعين بالسهرات والهبات وهم أصدقاؤه أو من يظنهم أصدقاؤه، فقد كان ينفق عليهم الكثير وكان يقدم لبعضهم رواتب شهرية ثابتة غير الهدايا لدرجة أن أحدهم - ولن تصدقني - قد أسس شركة مقاولات خاصة به من عطايا زوجي وماكيناته وآلاته وأصبح الآن يتكلم بلغة الملايين. وبسبب الخمر والنساء والبذخ وليالي السهر غير البريء انكسر زوجي في السوق. وبدأ المال يتسرب من بين يديه ثم تسرب أيضاً العقار الذي كان يملكه ثم الآلات التي كان يعمل بها، ثم تغيرت الدنيا وأه يا صديقي من الدنيا حين تقلب لأحد ظهر المجن: تبدد المال وتسرب العز شيئاً فشيئاً وخلا البيت من الشغالين واحدا وراء الآخر وبدأت الملابس الفاخرة تبلى وتصبح ملابس قديمة، ولا بديل لها لأنه لا شراء لملابس جديدة، ولأنه لم يعد هناك دخل منتظم إلا ما يجيء بين فترة وأخرى من بيع شيء. التليفون الذي كان يرن عشرات المرات كل يوم أصبحت الأيام تمضي طويلة وهو صامت لا ينطق، والسيارات الفاخرة تحولت أولاً إلى سيارات صغيرة ثم بيعت بأي ثمن بعد ذلك، والأصدقاء الذين كانوا يتنافسون في دعوتنا للسهرات والحفلات أصبحنا لا نراهم، ولا نسمع صوتهم، وأصبحنا خلال عشر سنوات على الحديدية تماماً، ولم يبق من معالم حياتنا القديمة سوى الشقة التي نعيش فيها في الحي الراقي والتي لو خيرت لتركناها وتواريت في زقاق صغير من أزقة القاهرة الخلفية لأعيش حياة قاع المدينة بلا تمثيل، فقد أصبحنا من أهل القاع يا صديقي وإن سكنا على القمة ولقد عرفت الطريق إلى باعة الملابس المستعملة أذهب إليهم متسترة وأعود من عندهم حاملة ما نحتاج إليه، وأصبحت أخشى أن أمر أمام أية فاترينة محل لكي لا أنظر إلى ما بداخلها

خشية أن ينتابني الضعف الإنساني وأشتاق إلى شيء داخلها مما كنت أشتريه
زمان بالذست.

وأصبح أكثر ما يغيظني هو أن يناديني الباعة وأنا أتعامل معهم يا ست هانم، فإني
أحس بسخرية مريرة حين أسمعها فأين هي هذه الست هانم؟ وحقيبة يدي خاوية
الوفاض وأصبح أكثر ما يؤلمني هو أن أجيب أبنائي بالجملة التقليدية كلما طلبوا
مني شيئاً يحتاجون إليه فأرد ومن أين الفلوس الألعنة الله على هذه الفلوس التي
يشعر نقصها الإنسان بالعجز عن تلبية مطالب أبنائه، وبالإحباط لعدم قدرته
وهوان شأنه:

لقد حاولت أن أبحث عن عمل بالثانوية العامة.. لكن أين هو هذا العمل وكم
يساوي راتبه. وفكرت في أن أعمل مديرة منزل لدى إحدى الأسر لكن ذلك يتطلب
وجودي خارج البيت تماماً، وهكذا أصبحت العربية مليئة بالأثقال وعجلاتها
تغوص في الرمال.. ولا أدري إلى أين المصير؟ لكني أتمثل دائماً قول الله تعالى:
“وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ”، ومع تمسكي الدائم بهذا السلاح تنتابني أحياناً
بعض حالات التمرد الطارئة وأسأل نفسي أما أن لهذا الحائر بالصدر أن يغفو. لقد
اختبرني الله سبحانه وتعالى في إيماني بهذه الصعاب ولعل ذلك عقاب على ذنب
جنيته ولا تسألني ما هو هذا الذنب، فكلنا ذنوب.

وحتى كتابتي اليك هذه الرسالة أخشى أن تكون اعتراضاً على قضاء الله، لكنني في
حيرتي حاولت أن أسمع رأياً من أحد في محنتي. إن زوجي يرفض العمل لأنه بلا
رأس مال وليست لديه الآلات اللازمة للعمل وقد مضت عليه الآن عشر سنوات
وهو بلا عمل وبلا دخل ثابت، ومشوارنا مازال طويلاً.. بناتي مازلن في التعليم..
أنا أعص بحيرتي ومرارتي بين من يعاملوني باحترام كهانم محترمة وبين واقع
حياتي المر فما رأيك؟



ولكاتبه هذه الرسالة أقول:

رأيي يا سيدتي أنك سيدة محترمة فعلاً وعملاً، وأنه لا وجه لسخريتك من احترام الناس لك رغم أنك خالية الوفاض.. فأنت سيدة محترمة بأخلاقك وحسن معاملتك للناس وباحساسك السليم بالمسؤولية عن أسرتك وبناتك ثم متى كان المال وحده هو مبرر الاحترام، إن المال قد يكون سبباً في النفوذ والسطوة وقد يكون سبباً في قدرة الإنسان على تحقيق بعض ما يريد لكنه وحده لم ولن يكون أبداً سبباً كافياً وحده لاحترام أحد.. فما أكثر من يملكون المال ولا يساؤون شيئاً، وما أكثر من لا يملكون الكثير لكنهم يساؤون الكثير في نظر غيرهم بأخلاقهم وقيمتهم واحترامهم لأنفسهم واحترامهم للآخرين إنها قضية مفروغ منها.

والمهم هنا هو مشكلتك الحالية، ومشكلتك الحقيقية هي في رفض زوجك للعمل طوال هذه الفترة، وهو يرفضه لأنه لا يملك رأس المال ولا الآلات، وهذا السبب وحده يكشف مأساته إنه لا يريد أن يعمل عند أحد، وإنما يريد أن يعود كبيراً كما كان، وهذا مستحيل فالإنسان العاقل هو من لا يتوقف طويلاً أمام ما حدث ويسأل نفسه كيف حدث هذا ولماذا حدث؟ ولماذا وقع لي هذا وحدي دون غيري. ثم يمضي العمر يجتر مأساته ويستنفد طاقته في الحزن على ما ضاع.

إن الإنسان الواقعي لا يضيع الوقت في البكاء على اللبن المسكوب، وإنما يستخدم كل طاقاته وقدراته في التفكير والعمل على التغلب على المشكلة التي تواجهه بأي خطوة عملية في طريق الحل والعمل هو طريق الخلاص لك ولزوجك لذلك فإني أنصح زوجك ألا يظل قابلاً في البيت ينتظر رأس المال والآلات لكي يعود من حيث انتهى مقاولاً كبيراً مرة أخرى، فلم لا يعمل موظفاً أو خبيراً في أي شركة مقاولات، ولا مكان هنا للأنفة ولا للتكبر فالعمل الشريف لا يعيب إنساناً وإنما يعيبه قبوعه في البيت عاجزاً عن تلبية احتياجات أسرته، وهذا العصر ليس عصر الأيدي الناعمة التي تستنكف العمل إلا في ديكور معين، وإنما هو عصر الأيدي الناشئة من العمل في أكثر عمل صباحاً ومساءً كل يوم لتلبية مطالب الحياة الصعبة، لذلك فإني أنصح بقبول أي عمل كخطوة أولى في مجال المقاولات، أو في مجالات الترجمة باللغتين الفرنسية والإنجليزية أو في أي مجال آخر ولو تلقيت استجابة بشأنه في هذا الخصوص فسوف أقدمها لك بكل سرور، لكن يبقى

بعد ذلك درس هذه القصة الذي لا يحتاج إلى جهد كبير لاستخلاصه- ولا أعرف لماذا تذكرت وأنا أقرأ هذه الرسالة كلمة أمير المحدثين سفيان الثوري " من كان معه فضل من مال فليصلحه فإن الرجل إذا احتاج فإن أول ما يبذله هو دينه " !

وإصلاح المال كما تعرفين يا سيدتي لا يكون بحسن استثماره فقط، وإنما يكون أيضاً باتقاء الله فيه من كل الوجوه، لا بإتفاقه في اللهو والفجور، ولو أن زوجك يا سيدتي سامحه الله قد أعطى المحتاجين الحقيقيين عشر ما أعطاه للمنتفعين لما خسر كل شيء ولو خسر المال بالفعل لظروف قاهرة لهماً الله له من ينتشله من ضائقته ويحفظ عليه كرامته، وربما كان منقذه واحداً من هؤلاء المحتاجين الذين أقلهم من عثراتهم في الماضي.

وهذا هو المعنى البسيط لهذه الكلمة العجيبة التي نستخدمها في حياتنا اليومية كثيراً بغير أن ندرك كل أغوارها العميقة وهي كلمة " الستر " الذي أرجوه لك من أعماق قلبي في أيامك الصعبة هذه.



فاتورة حساب

أكتب إليك هذه الرسالة الخاصة لثقتي التامة بك وإن كنت لا أعرفك إلا من مآسي بريد الجمعة، ثم لسبب آخر استميتك عذراً فيه هو أنني لا أجد أحداً أبثه همومي بعد أن مات صديق عمري وكان الوحيد الذي أستطيع أن أتحدث إليه في مشاكلتي.

مشكلتي باختصار هي أنني كنت موظفاً كبيراً مرموقاً محبوباً من زملائي ومروؤسي، محترماً في منزلي مطاعاً من كل أفراد أسرتي، ثم تغير الحال تماماً بعد أن أحلت إلى المعاش منذ سنوات، فقد نسيتي زملائي ومروؤسي تماماً، كأني لم أعد على قيد الحياة، هؤلاء لهم عذرهم في مشاغل الحياة لكن أفراد أسرتي ما هو عذرهم يا صديقي؟ لقد تغيرت أحوالهم معي كثيراً بعد إحالتي إلى المعاش، وتحول حب أبنائي وبناتي وزوجتي لي إلى كراهية وبغض، وتحولت طاعتهم لي واحترامهم لي إلى عقوق وإساءات، فجلوسي يضايقهم وسيري يقلقهم، واستماعي للراديو ومشاهدي للتلفزيون تثيرهم، فأين أذهب وليس لي مكان آخر "سوى بيتي؟"

إنني أتساءل أحياناً عما جرى؟ فلا أجد سبباً معقولاً... فهل يفقد الإنسان احترامه بين أسرته حين يحال إلى المعاش، وينقطع الأمل والرجاء فيه؟.. قد أفهم أن يضعف هذا الاحترام عند طلاب الحاجات حين يفقد الإنسان قدرته على خدمة الآخرين بفقد موقع عمله.. لكن كيف يتغير هذا الاحترام بين الأبناء وأفراد الأسرة نفسها؟

لقد تزايدت الخلافات مع زوجتي وتزايدت تحريضها لأبنائي عليّ حتى تفاقم الخلاف مع زوجتي سامحها الله، وانتهى بعزلي من جانبها في حجرة بعيدة صغيرة في البيت كانت معدة أصلاً للشغالة.. وأصبحت وحيداً تماماً في أسرتي لا يكلمني أحد ولا أكلم أحداً، حتى أنني لأكلم نفسي أحياناً خشية أن أنسى نطق الكلمات.. ووجدت نفسي محروماً من دخول بقية غرف البيت الواسع التي تغلق دوني بالمفتاح، وأعيش منفصلاً أعد لنفسي طعامي إذا سمح لي بدخول المطبخ، وأغسل ملابسي بيدي دون استعمال الغسالة الكهربائية..!!.. قد تقول إن ذلك ضعف مني، لكنني أقول لك لا يعرف العذاب إلا من يعيشه فهو ليس ضعفاً لكنه محاولة لتفادي أهوال ومشاكل ومضاعفات أمراض كثيرة أخطرها القلب والسكر.. وعلى الرغم من ذلك فإني لا أنجو من العذاب فعند أي خلاف مع زوجتي ينضم كل أبنائي وبناتي جميعاً إليها ضدي. وأبنائي وبناتي يقاطعونني فلا يوجهون لي كلمة واحدة بالأيام والأسابيع والحياة في الأسرة التي كنت عمادها حتى وقت قريب أصبحت تدور حول محور آخر هو زوجتي المتجبرة سامحها الله.. والاجتماعات العائلية بين زوجتي وأبنائي تعقد في الغرف المغلقة تناقش أخطر الشؤون العائلية دون دعوة الأب لسماع رأيه، ولو من باب الشكل أما هذه الأمور فأبسطها خطبة ابنة من بناتي.. أو فسخ خطبة ابنة أخرى أو شراء سيارة! وحين أسمع فيما بعد بشأن من هذه الشؤون اختنق بالدموع، وأتذكر كيف كانت كلمتي هي الكلمة الفاصلة في مثل هذه الشؤون منذ سنوات قليلة قبل أن يسقط احترامي بين أهلي.

وأريد أن أكون أمينا معك فأقول لك إنني ربما أعرف سببا آخر لما الأقيه الآن من أبنائي وزوجتي هو عقوقي أنا شخصيا لوالدي الذي مازال على قيد الحياة.. فلقد نسيته أو تناسيته إرضاء لأسرتي في بادئ الأمر، ثم أصبحت إقامتي معه أو مشاركتي لحياته أمراً مستحيلاً فهي حياة متواضعة لا مكان لي فيها لاسيما بعد أن طعن في السن وأصبح في حالة غير طبيعية يحتاج فيها إلى عناية النساء.

فإذا أفعل الآن يا صديقي إن لي أبناء وبنات في مراكز مرموقة، وفي سن الزواج ومن حقهم عليّ أن أصون سمعتهم وكرامتهم أمام الجميع، وإن لم يبقوا لي على شيء منها، لذلك فإنني ما زلت حائراً ماذا أفعل هل انتحر؟ وأنا رجل مؤمن بالله؟ أم أهرب بعيداً عنهم؟ أم أطلق زوجتي.. وقد سبق أن فعلت.. أم أتزوج زوجة جديدة؟ أشر عليّ يا صديقي فإنني لا أجد من أستشيره!



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إنك لست في حاجة إلى رأيي يا سيدي فأنت رجل في قمة العمر وفي مرحلة النضج والحكمة.. لكنك في حاجة إلى أن تثبت أحداً همومك وآلامك، وتريد أن تخرج من صدرك كل البخار المكتوم قبل أن ينفجر الصدر بما فيه وفي ذلك بعض الراحة وبعض العزاء.

وقصتك مؤلمة بالفعل لكن سر تعاستك فيها ليس هو الإحالة إلى المعاش فالكثيرون يحاولون إلى المعاش كل يوم، ولا يفقدون احترام أبنائهم وأسرههم بل لعلهم يزدادون محبة واحتراماً بين أسرههم لتفرغهم لرعايتهم بعد طول انشغال.

إن مأساتك ليست في المعاش لكنها في الخلافات المزمنة مع زوجتك بدليل سابقة طلاقك لها، ومأساتك الأكثر إيلاماً هي في عقوق أبنائك وبناتك لك، وانحيازهم ضدك بتأثير هذه الخلافات، وهي أيضاً في هذه العزلة القاسية المؤلمة التي تعيشها.. وفي هذا التجاهل الذي يرقى إلى مستوى الجريمة من جانب أسرتك لك في الشنون العائلية، التي ينبغي ألا يغيب فيها دور الأب مهما كانت الخلافات.

لكن هناك أمرا آخر أريد أن أحدثك عنه وأرجو ألا أولمك به كثيرا وأنت في محنتك هذه، إنك تعترف بأنك قد نسيت أباك الذي مازال على قيد الحياة إرضاء لأسرتك في بادئ الأمر، ثم أصبحت مشاركتك له حياته، مستحيلة لأنها حياة متواضعة لا مكان لك فيها خصوصاً بعد أن طعن في السن وأصبح في حالة غير طبيعية!

أليست هذه كلماتك؟ لا بأس إذن فقد نسيك أبناؤك وأنت على قيد الحياة بجوارهم إرضاء لأهمهم.. وربما لأنهم أصبحوا يرون أن مشاركتك حياتك واهتماماتك قد أصبحت الآن "مستحيلة" خصوصاً بعد أن كبرت في السن!! أما علمت يا صديقي أن الدنيا ديون يسدد بعضها في حياتنا ويسدد بعضها الآخر في العالم الآخر.

إنني لا أبرر تصرف أبناؤك فهو جريمة بكل المقاييس في حقك، وفي حق الإنسانية " وحسابهم عنها مع ربهم.. ومع أبناؤهم وبناتهم أيضاً إن شاء الله، لكني أسألك كيف أردتهم أن يكونوا أفضل منك أنت شخصياً في علاقتك بأبيك.. وفاقد الشيء لا يعطيه كما تعلم؟ لم تعطهم المثل ولا القدوة في الوفاء للأب والاعتراف بفضله، فكيف تنتظر منهم أن يكونوا أبناء أوفياء؟ خصوصاً في جو الخلافات الزوجية الذي يهز القيم ويفسد الأخلاقيات، إنها فاتورة حساب كنت مديناً بها لأبيك وجاء وقت السداد!

إنني لا أريد مرة أخرى أن أولمك لكنك تسألني ماذا أفعل، وسأقول لك ما تفعل: يا صديقي لا تنتحر ولا تطلق زوجتك.. ولا تتزوج زوجة أخرى.. ولا تفر بعيداً عن أسرتك. ولكن اذهب إلى أبيك الطاعن في السن وقبل يديه وقدميه وأسأله العفو والمغفرة، وأشكر الله كثيراً أن طال به العمر لكي يعفو عنك فلا تبوء بجريمتك في حقه طول العمر. فإن عفا وسوف يعفو بالتأكيد سوف يأتي إليك أبناؤك طائعين ولو بعد حين، ليسألوك العفو والمغفرة. وسوف تتغير أمور كثيرة إلى الأفضل في حياتك.

غفر الله لك ولنا وللجميع.



جسيم كل يوم

لا أعرف هل تتسع هذه السطور لأروي لك مشكلتي كاملة أم لا؟ لكني سأحاول في اختصار شديد أن أبدأ قصتي- بأنني مهندس زراعي عمره 35 سنة، تخرجت من 10 سنوات بتقدير جيد جدا ولم أعين معيدا بالكلية ولم أستكمل دراستي العليا لانشغالي فيما بعد بالعمل والزواج، وقد عملت في إحدى الهيئات بالقاهرة وتعرفت على زميلة لي بالعمل لمدة 13 شهر فقط تقدمت بعدها لخطبتها وزواجها.

وبعد عام من الزواج اكتشفت أنني لم أكن أعرفها جيدا وأن هناك تنافرا شديدا في طباعنا فأنا رومانسي ورقيق المشاعر وهي جامدة قاسية وقد أصرت على أن نعيش مع والدتها التي تقيم وحدها في وسط المدينة فكانت البداية جميلة، أما النهاية فمن أسوأ ما يمكن ولن أسرد لك التفاصيل، لكنني سأقول لك إنني رأيت استحالة الحياة معها في بيت والدتها فانتقلت معها إلى أحد فروع الهيئة التي أعمل بها في مدينة صغيرة بالريف، وتخيلت أن مشاكلتي قد انتهت بعد أن بعدنا عن سيطرة أمها عليها لكنني مرضت بالتهاب حاد في أعصاب القدم وبانزلاق غضروفي وقاسيت كثيرا وذات يوم ذهبت لاستشارة الطبيب ثم عدت فلم أجدها ولم أجد طفلي من العمر 3 سنوات، وعلمت أنها سافرت لتقيم مع والدتها لأنها لا تريد الحياة في المدينة الصغيرة، وأنها قد نقلت نفسها إلى موقع عملنا السابق بالقاهرة، ساءت حالتي الصحية فرقدت على ظهري لمدة شهرين بلا حراك أقاسي من آلام عضوية ونفسية رهيبية وأقاسي الأمرين إذا احتجت إلى كوب ماء... وزوجتي في القاهرة ترفض العودة.. وترفض أن تسمح لي برؤية طفلي.

ولا أرى طوال هذه الفترة وجه طفلي إلا في الصورة الصغيرة القديمة التي أحتفظ لها بها.. وقرر الأطباء إجراء جراحة لي.. وانتقلت إلى القاهرة لإجراء الفحوص استعدادا للجراحة. وطلبت من شقيقي الأصغر، الذي كان يلازمي في المستشفى أن يدعو زوجتي وطفلي لأراهما قبل دخول حجرة العمليات. وأن يرجوها إذا رفضت الحضور أن تعطيه طفلي لأراها وأقبلها قبل دخولي حجرة العمليات، فذهب شقيقي ورجوت الأطباء الانتظار قليلا إلى أن تأتي ابنتي فقبلوا ثم عاد شقيقي صامتا فنظرت إليه بلهفة فخفض عينيه في الأرض.. فلم أنبس ببنت شفة لكنني أغمضت عيني لأمنع دمعة من السقوط، ثم قرأت الفاتحة ونطقت بالشهادتين وقلت لمن حولي أنا جاهز للعملية.

وأجريت لي الجراحة ونجحت والحمد لله.. ويبدو أن شقيقي وأقاربي قد ألحوا عليها طويلا لتسمح لي برؤية ابنتي فرفضت أن تتركها لهم، وجاءت معها إلى المستشفى متأففة.. وببرود شديد تنظر في ضيق إلي وأنا أعانق طفلي وأقبلها ثم نزعته مني بعد دقائق وانصرفت.

ولسوء حظي فلقد أصبت بالتهاب كبدي بسبب تلوث الدم الذي نقل لي أثناء الجراحة.. فرقدت في الفراش لمدة 6 شهور أخرى، لم أر فيها ابنتي ولا زوجتي مرة واحدة. ونجوت بفضل الله من هذا المرض، لكنني أصبت بعد ذلك بالتهاب حاد

بأعصاب القدم مرة أخرى وبشد بالعصب، فلم أكن أغادر الفراش لعدة أيام حتى عدت إليه ورددت فيه لمدة 4 شهور أخرى، والحمد لله دائماً. ثم عفا الله، بعد ذلك فغادرت الفراش وعدت إلى عملي بالقاهرة في نفس الهيئة التي تعمل بها بعد إلغاء انتدابي، وبعد مرض دام حوالي سنة لم أر ابنتي خلالها سوى مرة واحدة، وكنت قد استنفدت في العلاج كل مدخراتي فعدت كأني أبدأ من جديد، فأقمت لدى شقيقتي بالقاهرة لكنني واجهت مشكلة صعبة هي مشكلة وجودي مع زوجتي المنفصلة عني بلا طلاق في نفس المكان. فلقد بدأت من اليوم الأول تكيد لي بكل الطرق بالخلاعة في الملابس والمظهر، وفي البحبة والهازار مع الموظفين.. وأنا أحترق كل لحظة وقد طرقت كل الأبواب للصلح معها. أو الطلاق بالتفاهم، بلا فائدة أو للانتقال لإدارة بعيدة عنها بلا فائدة. وقد حاولت طلاقها لكنني لم أستطع مواجهة قانون الأحوال الشخصية الجديد، نظراً لاستنزاف كل مدخراتي في العلاج، فحاولت أخيراً عن طريق القضاء وما زال التحقيق مستمرا كما يقولون.

وقد تحملت كل شيء لكنني لم أستطع أن أتحمّل ما حدث عندما فوجئت ذات يوم بطفلتي التي لم أرها منذ 6 شهور تدخل على حجرتي بالعمل، وتندفع إليّ واندفع إليها ثم تقبلني وتقول لي ببراءة كلما سألت عنك ماما تقول لي إن بابا مات، وفتت مذهولاً وسكت كل زملائي مذهولين وحاولوا التخفيف عني ثم جاءت أمها لتتزعجها مني فتشبهت الطفلة بعنقي وحاولت بلا جدوى أن أقنع زوجتي بأن تتركها لي لعدة ساعات، على أن أحملها إليها في بيت والدتها فخرجت مع ابنتي الممسكة بي ومع زوجتي لكي أتفادي الإحراج أمام زملائي ونزلنا إلى الشارع وفي عرض الطريق ركعت على الأرض لأقبل ابنتي وأقنعها بأن تمضي مع والدتها فإذا بها تلف ذراعها حول عنقي وتتشبث بي، وأفاجأ بأمها تجذبها بعنف وشدة من رجليها فيبقى نصفها معي ونصفها الآخر معها مثل الأرنب عند سلخه، فتركت البنت إشفافاً عليها فإذا بأمها تجري بين السيارات وهي تحملها والبنت تصرخ وأنا أبكي والناس يتفرجون.

ومضى اليوم ومضت أيام بعده وبدأت ألاحظ أن وزني ينخفض بسرعة مذهلة... ولا أظنك سوف تدهش بعد كل ما رويته لك حين تعرف أنني ذهبت للطبيب فاكتشف أنني أصبت بالسكر، وبدأت رحلة علاج أخرى وأنا حالياً في أجازة مرضية، وقد اتفق رأي الأطباء على ضرورة أن أترك مكان العمل الذي نعمل فيه معاً لكي لا تتكرر المأسى ولكي أبدأ حياة جديدة مع إنسانة جديدة خاصة وأنا عمري 35 عاماً. وعلى قدر كبير من الوسامة لكن كيف أجد عملاً آخر له نفس الميزات من الراتب المعقول والحوافز الكبيرة، وأنا لا معارف لي ولا واسطة، إنني الآن في دور النقاهة وأريد حلاً لهذه المشكلة قبل عودتي للعمل. فما رأيك؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

أي راتب وأية حوافز وأية ميزات يمكن أن يتحمل الإنسان من أجلها هذا الجحيم، إنك تموت يا صديقي كل يوم عشرات المرات مما تلقاه، وتمرض فترقد في الفراش بالشهور ولا يتحرك من أجلك قلب زوجتك الحجري ثم تفكر في فارق بضعة جنيهات في الراتب والحوافز.

ابحث يا صديقي لنفسك عن عمل آخر بعيداً عن عمل زوجتك ولا تتشبث بالأوهام، فإنك كما يخيل إليّ ما زلت تأمل في عودتها إليك بعد ما قرأته في رسالتك فلقد أغلقت قلبها دونك، وهذا قدرك وكل إنسان معرض لذلك.

لكن الخطأ هو في الاستمرار في نطح الصخر بلا جدوى فلا داعي لمضاعفة العذاب.. وتحمل قدرك وأبدأ حياة جديدة مع غيرها عسى أن يعوضك الله معها عما لقيته من عذاب مع هذه الزوجة صخرية القلب والمشاعر.. ولا مفر من تحمل الابتعاد عن ابنتك حتى تبلغ السن القانونية أو إلى أن تجد طريقة مشروعة ولو بالقانون لرؤيتها كل حين فهذه هي الحياة يا صديقي حلوة أحياناً.. وقاسية في أحيان كثيرة.. لكن الزمن كفيل بمداواة الجراح وبنسيان كل الآلام أو بتخفيف حدتها على الأقل.

وصدقتي إن الإنسان قادر على نسيان كثير من الآلام.. ولولا قدرته على النسيان لما عاش ولما استمرت الحياة.. وما سمي الإنسان إلا لنسيه.. ولا القلب إلا لأنه يتقلب، كما يقول الشاعر.. وإني واثق أنك ستنسى زوجتك هذه وعذابك معها بعد حين، فلا تتوقف أمام هذه المأساة كأنها نهاية الحياة، فأنت ما زلت في بداية حياتك وإني أسف لأن أقول لك ذلك، وأنا الذي لا أنصح أبداً بالطلاق إذا كان ثمنه ضياع طفلة رقيقة بين أboيها كطفلتك، لكن ما قرأته في رسالتك يدفعني دفعاً لذلك فاللعنة على أي قانون مهما كان اسمه يجبر الإنسان على الاستمرار في مثل

هذه الحياة التي يحترق دمه فيها كل يوم ويمرض مما يراه ويعانيه. واللغة على كل مميزات العمل التي تعرض الإنسان لكل هذا العذاب وهذا الجحيم، واللغة على كل الأشياء.. إذا كان ثمنها أن تتعرض طفلة لما تعرضت له طفلتك.. وأنها تشدها من ناحية وأنت تشدها من ناحية أخرى مثل الأرنب عند سلخه ” على حد وصفك المؤلم “.. ألف لعنة عليه هو الآخر فلقد أدمى قلبي! لكن كم في الدنيا من قساة لاهين ينقادون لأهوائهم ولأحقادهم ولعنادهم إلى أن يفيقوا على الصدمات المزلزلة بعد فوات الأوان، وزوجتك فيما تقول رسالتك واحدة من هؤلاء لسوء حظك ولسوء حظ ابنتك بكل أسف.



رسالة من خائف

أتابع كل أسبوع ما ينشر من مشاكل في بريد الجمعة على أمل أن أجد مشكلة شبيهة بمشكلتي فأستفيد برأيك فيها فلا أجد فيما أقرأه مشكلة مثلها.. ومشكلتي يا سيدي في كلمة واحدة هي الخوف:

وأرجوك ألا تسخر مني.. فهي مشكلة كبيرة أرجو ألا يتعرض لها أحد كما أرجو ألا تتصور أنني صبي صغير يخشى مواجهة الحياة، فأنا موظف عمري 48 عاماً، ومتزوج ولي 3 بنات ودخلي معقول يكفي متطلبات الحياة بالعافية، وأبواب الرزق الحلال مفتوحة أمامي على مصراعيها لكن ما يحول بيني وبينها هو هذا الوحش الكامن داخلي وهو الخوف فأنا أموت رعباً 24 ساعة كل يوم وأرتجف خوفاً من كل شيء ومن أتفه شيء - فإذا كنت سائراً في الشارع وشاهدت على الرصيف الآخر رجلاً يتشاجر مع رجل آخر يقف خلفي أتصعب عرقاً يتسلط عليّ الإحساس بأن أحدهما سيتحول إليّ فجأة لينهال عليّ ضرباً مكتشفاً لأول مرة أنني سبب هذا الشجار الذي نشب بينهما " بالرغم من أنني أراهما للمرة الأولى في حياتي ".

وليست صور أو انعكاسات مشكلتي تتوقف عند هذه الحالات البسيطة، لكنها تتعدى ذلك إلى ما هو أخطر منه بكثير وسأروي لك نماذج سريعة لها.. سافرت منذ 5 سنوات إلى الكويت بعقد عمل ساعدني عليه المعارف والأصدقاء، وفي اليوم الأول لوصولي وتسلمي عملي كنت في شقتي، حين فوجئت بالشرطة تدخل العمارة وتلقي القبض على شخص يسكن في الشقة المجاورة لشقتي لاتهامه بضرب آخر في اليوم السابق. سنقول وما دخلي في ذلك؟ ولكن هيهات! فقد مت رعباً لمدة 30 يوماً بعدها، ومرضت وتسلط عليّ الإحساس بأن جاري هذا سيتهمني بما فعل وسيدخلني السجن. ولم أستطع المواصلة وطلبت العودة وعدت مديناً وما زلت أسدد ديون هذه الرحلة الخاسرة.

ومرة أخرى كنت أقوم بمراجعة وضبط حسابات بعض المحلات الصغيرة وكان دخلها يساعدي على تلبية متطلبات الحياة. ثم حدث أن سرق أحد هذه المحلات. فتوفيت "أنا خوفاً ورعباً من أن يتهمني صاحب هذا المحل بسرقة"، وبالرغم من أن الجاني قد قبض عليه بعد أيام فقد أثرت البعد عن هذا المجال بعد الحادث وأغلقت أمامي هذا الباب من أبواب الرزق، وفي مرة أخرى كنت سائراً في الزمالك لقضاء حاجة سافرت إليها خصيصاً، فشاهدت طفلاً صدمته سيارة وقائدها يقول: لقد جرى فجأة أمامي، ولن أروي لك ما حدث لي بعدها فلعلك قد فهمت من رسالتي ماذا حدث. لكنني فقط سأقول لك إن أطرافي تتلجت وأصبت برعشة شديدة في مفاصلي وفقدت القدرة على السيطرة على أي جزء في جسمي، وحين استطعت أن أتحرك عدت فوراً وبأقصى سرعة إلى الأتوبيس وعدت من حيث أتيت بغير أن أقضي ما جئت من أجله.

أعرف أنها حالات نفسية وأنت ستقول لي أعرض نفسك على طبيب نفسي أو طبيب أعصاب لكنني فعلت وذهبت إلى ثلاثة من كبار الأخصائيين دفعت لكل منهم "جمعية" بـ 50 جنيهاً كاملة، ولا فائدة والآن ضاقت بي الحياة وضقت بها فجازفت بالسعي للعمل في الخارج، وحصلت على عقد عمل في دولة عربية وبأجر مغر وأجلت موعد السفر إلى ما بعد العيد، ووافق صاحب العمل ورغم ما تكبدته من نفقات لإعداد الأوراق وتوثيقها فقد بدأ الوحش الذي بداخلي يطل عليّ من جديد، وبدأت أوجل السفر والتمس الأعداء.. وبدأت أفكر في أن أعالج نفسي قبل السفر لكن أين أجد العلاج المفيد، وأين أجد من يقبل علاجي في عيادته ويوجل قبض مستحقاته إلى ما بعد السفر، وأنا على استعداد لأن أعطيه أضعاف ما يريد وأن أعطيه شيئاً أو كمبيالة بالمبلغ، بل إنني على استعداد لأن اقترض وأعطيه ما يطلب. أموت يومياً مئات المرات وآلاف المرات ولولا بعض العقل.. وبعض الإيمان لوضعت حداً لهذا العذاب الذي أعيشه ليل نهار، ولهذا الخوف الذي جعلني أرفض عدة مناصب قيادية صغيرة وجعلني محلك سر في وظيفتي لهروبي الدائم من المسؤولية.



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

تلقيت هذه الرسالة العجيبة في بريدي هذا الأسبوع وسأتجاوز سريعاً ما أحسست به من دهشة وأنا أقرأ كلماتها، لأقول لهذا القارئ المعذب بخوفه وأين هو بعض الإيمان فيما تروييه عن نفسك، إنني لا أريد أن أقسو عليك لأنك تعاني من حالة مرضية فيما اعتقد وليس على المريض حرج.. لكنني أتصور أن مرضك ليس بالشيء الخطير إلى جوار ضعف إيمانك.. وانعدام ثققتك في الله وفي نفسك، مم تخاف يا رجل وأنت رجل ناضج وأب وموظف ومسؤول؟ إن الخوف إحساس إنساني غريزي.. وضعف بشري مشروع وفي داخل كل إنسان منا لا بد من قدر معقول من الخوف يرده، عن أن يرد المهالك ويساعده على تقدير المسؤولية لكن كل شيء يزيد على حده ينقلب إلى ضده، والشيء عندك قد توحش فانقلب إلى حالة مرضية حادة.

ومشكلة علاجك ليست معضلة ولو اتصلت بي لوجهتك إلى أحد كبار الأطباء الأجلاء الذين يعالجون مرضى قراء البريد من محدودى الدخل بلا أجر. ويقدر عظيم من الفضل والرعاية كما أنى لو تلقيت أية استجابة لعلاجك فسوف أقدمها لك لكن المشكلة تبقى أكبر من مشكلة حالة مرضية، وهي إن صح تقديرى حالة ضعف شديد في الإيمان بالله.. خالق كل شيء ومقدر الخير والشر، فإذا كان كل شيء بقضائه وقدره فالخوف لماذا؟.

إنني أظن - وأستغفر الله فيما أظن - أن حالتك قد بدأت خلال ممارستك لعملك الصغير كموظف رأى من حوله يخافون من كل شيء وخاصة المسؤولية، فخاف مثلهم من كل شيء.. ثم نما الخوف في داخله حتى توحش.. وانقلب إلى حالة مرضية، وهي مصيبة لا أريد أن أتسرع في تعميمها على نماذج عديدة، لكنى لا أتردد في أن أرجعها إلى ظروف عامة صادفت لديك استعداداً مرضياً للخوف فاستفحلت لديك وأعتقد أنك قد "تعلمت" الخوف في المسؤولية أولاً في مدرسة الخائفين، ثم تحول الخوف عندك إلى مرض، ولو كنت مصاباً بهذا الخوف القاتل من بداية حياتك لما تزوجت غالباً ولما جرؤت على تحمل مسؤولية الزواج والإنجاب مع تمنياتي لك بالشفاء.



رسالة من حاقدة!

أنا فتاه في الثانية والعشرين من عمري طالبة بالسنة الثالثة بكلية عملية مرموقة، متفوقة في دراستي وأنجح كل سنة بتقدير امتياز، تسألني وما المشكلة في كل ذلك فأقول لك مشكلتي باختصار هي أن كل من يراني يعتقد أنني إنسانه عادية طبيعية في تصرفاتي، مع أصدقائي ومع من حولي، لكنني في واقع الأمر لست كذلك، فأنا بصراحة تامة دائمة "الحقد" على كل من حولي! إنني أستطيع أن اعترف لك بذلك لأنني أكتب هذا على الورق.. ولا تراني ولا تعرفني لذلك أستطيع أن أتكلم معك بحريتي. وقد تظن أنها مشكلة بسيطة لا تحتاج إلى الاهتمام، لكنني أؤكد لك أنها ليست كذلك، فأنت لا تتصور المعاناة حجم التي أعانيها كل ساعة وكل لحظة.. إنني لا أتصور أحدا " أحسن " مني ودائماً " أنظر " إلى ما ينقصني وأجده عند غيري فإزداد حقداً ويزداد همي وتفكيري، إلى درجة أعجز معها عن المذاكرة والامتحانات على الأبواب... إنني أجد نفسي أحياناً أتمنى السوء لهذه الصديقة أو تلك وأتمنى لنفسي ما عندهن.. وتستغرقني هذه الأفكار في البيت وفي الكلية.. لقد حاولت أن أشغل نفسي بالقراءة فوجدتني أغيب في أفكاري الشيطانية.. وحاولت أن أجد حلاً في العبادة فوجدت هذه الأفكار تطاردني حتى أثناءها... لقد فكرت كثيراً في الذهاب إلى طبيب نفسي لكنني لا أقوى على ذلك.. ولا أستطيع أن أصارح أحداً بدخيلة نفسي.. إنني أرجوك أن تنصحي.. هل أنا مريضة نفسياً؟ وماذا أفعل لأتخلص من " نفسي " الشريرة هذه؟ إنني أبكي كثيراً وأتساءل لماذا أحقد على غيري بهذا الشكل العنيف؟ فهل أجد عندك حلاً لمشكلتي؟



ولكاتبه هذه الرسالة أقول:

تلقيت هذه الرسالة "الفريدة" في بريدي هذا الأسبوع وتأملتها طويلاً! إنها لا شك رسالة "نموذج" لحالات عديدة مماثلة لكنني لم أتلق رسالة مشابهة لها من قبل.. وهذا يعني يا صديقتي أولاً أنك شجاعة وأنت " راغبة في التخلص " من حقدك على البشر كما تقولين.. وأنت بذلك قد خطوت خطوة مهمة في طريق العلاج..

الخطوة الأولى دائما هي أن نعرف أن ما نفعله خطأ، وأن نرغب في الكف عنه وتغييره.

إنني لا أعرف على وجه التحديد ما الذي ينقصك وتجدينه دائما لدى غيرك وتتعذبين به وتحقدين على الآخرين حتى على أصدقائك من أجله، بسبب بسيط هو أنه لم يخلق بعد الإنسان الذي يجد لديه كل ما يريد، وما يطمح إليه في الدنيا من مال وصحة وسعادة ونجاح ووسامة واستقرار وأبناء وحب الآخرين له.

فهو إن وجد المال الكثير قد لا يجد الصحة.. وإن وجد الصحة قد لا يجد المال.. وإن وجد الاثنين قد لا يجد السعادة وراحة البال، فإن كان قصيراً فهو يريد أن يكون طويلاً.. وإن كان أعزب فهو يريد أن يجد شريكة الحياة المخلصة.

وإن كان " كامل الأوصاف " فهناك دائما ما يريده وما يسعى إليه.. وهذا ما ينبغي أن يكون ولكن بلا حقد على من حققوا ما لم يحققه هو، فاريني يا أنستي من وجد كل ما يحلم به وما يريده.. لأعدد لك ما ينقصه وما قد يحتاج إليه، وسوف تجدينه كثيرا وكثيرا.. جداً. فهل يعني ذلك أن نمضي العمر وهو قصير مهما طال في استطلاع ما لدى الآخرين ولا نجد في أنفسنا؟ إن هذا هو الجحيم بعينه، إنك بذلك كمن يسير في شارع مزدحم بالناس يستطيع أن يعبره في حالتين.. الأولى أن يختصم كل من في هذا الشارع، وأن يجعلهم فوق كتفه وأن يحس بوجودهم جميعا وبمناكبهم تضرب في كتفه.. وبمنكبه يضرب فيهم، والثانية أن يعبر هذا الشارع في هدوء بغير أن يحس به أحد وبغير أن يحس هو بأحد، ترى أي الحالتين أكثر سلاماً نفسياً للإنسان؟ يا صديقتي إنه عذاب أن نشعر دائما بالآخرين وبما لديهم وبما لدينا وما ليس لدينا خصوصا أن الآخرين لا ذنب لهم فيما ينقصنا.. ولا فيما وجد لديهم أيضاً. لو سألتني النصيحة فإني أنصحك بالآ ترين في الآخرين إلا الحق والخير والجمال، فإتك إن فعلت وفرت على نفسك كثيراً جدا من المعاناة التي تقاسينها، وتأكدي إنه يندر أن يكره الإنسان إنساناً ثم يجبه هذا الإنسان، وأنه يندر أيضاً أن نحب الناس فلا يحبوننا.

والحديث يطول في هذا الموضوع، لكنني أكتفي بهذا القدر وأذكرك فقط بأن عين المرء هي نافذته التي يرى منها الدنيا، فإن كانت سوداء فلن يرى إلا سواداً، وإن كانت شفافة فسوف يرى كل الألوان وبأقدارها الطبيعية في الحياة.. وهذا ما أتمناه لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



عند الغروب

لا أستطيع أن أدعي أنني قد تدخلت في صياغة كلمات هذه الرسالة.. فالحق أن حرارة الكلمات قد لسعتني منذ سطورها الأولى فاستدرجني إلى نهايتها وتركنتي بعدها ساهماً.. وفي النفس إحساس رمادي ثقيل تقول كلمات هذه الرسالة:

بعد عشرة دامت ثلاثين عاماً كانت كلها حباً وعشفاً ودفعاً إلى الرقي وإلى الأمام.. عشرة أثمرت أربعة أولاد.. ابنتين تخرجتا في الجامعة وتزوجتا وابنين تخرجا في الجامعة وتزوج الأصغر وبقي الأكبر بدون زواج، وكلهم يشغلون مناصب مرموقة. بعد هذه السنوات الثلاثين رحلت الحبيبة. ماتت روعي ومات الأمل والأمان بعد أن توفيت زوجتي شريكة الحياة ورفيقة العمر، بعد عشرة لم نعرف فيها الغضب ولا الخصام. لم أكن أعرف معها عدد الساعات التي نقضيها معاً ولا عدد الكيلومترات التي نقطعها بالسيارة ولا عدد لترات البنزين التي نستهلكها، بل إنني أوقفت كلا العدادين لكي لا نعرف كم قطعنا من كيلومترات، ولا كم استهلكنا من لترات ولم نكن نعرف عدد النقود التي في جيوبنا. لقد كانت نبعاً يفيض بالحب والحنان، كانت حلوة الوجه والتقاطيع واللسان تتمايل في مشيتها أمامي في البيت كغزال، كانت حلوة القد وكانت تناديني وتكلمني بالأغاني بل إنها ماتت بين أحضاني في ثوان، لذلك كانت الصدمة قوية علي نفسي وروحي أكاد أفقد معها اتزانِي. وبعد مدة خدمة امتدت إلى الأربعين عاماً تقلبت فيها في مختلف وظائف الدولة العلمية والثقافية والمالية، ووصلت إلى أعلى منصب وهو منصب وكيل الوزارة، انتهت مدة خدمتي وأحلت إلى المعاش بعد مائة يوم فقط من وفاة رفيقة العمر، وشريكة الحياة التي وقفت معي في الضراء قبل السراء. خرجت إلى المعاش إلى فراغ تام قاتل مميت، ووحدة قاتلة على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم بلا أنيس أكلم نفسي، وأخاطب حبيبتِي في هذا الوقت العصيب الذي أصبحت أعاني فيه من فراغ المعاش، وفراغ البيت وفراغ الروح. أفكر في الزواج لا للمتعة ولكن للبحث عن أنيس أقضي معه ما بقي لي من أجل، ولكني أخاف أمرين أولهما احتمال غضب أولادي. وثانيهما وهو الأهم أين أجد الأمينة غير الطامعة الطيبة الهادئة التي يمكن أن أمن إليها وأنس لها وأجد فيها السلوى وعندها الحنان والحب والرحمة والأمن، وكل هذه الأشياء أصبحت أفقدها. إنني أتمتع بصحة جيدة والحمد لله، ولكن عذاب الليل وظلمته والأرق ألجأتني إلى الحبوب المنومة والمهدئات حتى أصبحت أخشى معها على صحتي، إنني كل صباح أركب سيارتي وأظل أهيم في الشوارع إلى أن أجد مكاناً هادئاً أضع السيارة وأجلس وحدي لأسرح مع نفسي وأكلمها، وأظل أبكي في حرقه حتى أتعب فأخذ سيارتي وأعود إلى بيتي، إلى حياة البؤس والوحدة واليتم، نعم فاليتيم هنا في مثل سني ليس من فقد أباه أو أمه ولكن من فقد زوجته.

فهل أجد عندك مأمناً وهل أجد عند أحد قرانك من يمنحني عملاً أشغل فيه وقتي ويتناسب مع مركزي الذي وصلت إليه في الدولة، فيستفيد من خبراتي وأستفيد بقطع الوقت الثقيل؟ وهل أجد عند قارناتك من أمن بها على نفسي ومن تشاركني

وحدتي، تكون من بيت طيب لا مطمع لها، وأن تكون في أواخر الأربعينات أرملة بلا أولاد أو مشاكل، أو أنسة فاتتها الأيام تعيش معي ومع ابني الذي يبلغ من العمر السادسة والعشرين.



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هذه هي الرسالة المعبرة التي تلقيتها منذ أيام. ولا أذكر أي على كثرة ما قرأت من رسائل مشابهة أو قصص لروائيين كبار تناولوا هذه الصورة الإنسانية في قصصهم.. لا أذكر أي قرأت من قبل وصفاً لزوجتي بقلم زوجها كهذه الصورة الشاعرية الرقيقة: تتمايل في مشيتها تتكلم بالأغاني.. حلوة الوجه والقدر تدفني إلى الأمام.. تقاسمني الضراء قبل السراء.. نركب السيارة لا نعرف كم قطعنا من الكيلومترات.. لا نعرف كم معنا من نقود! يا إلهي ظننت أن هذه الصور الرومانسية مقصورة على فترة الصبا والأحلام. فتعلمت من هذه الرسالة وما أكثر ما نتعلم كل يوم أن الرومانسية ليست مقصورة على مرحلة واحدة من العمر! إن مشكلتنا أننا لا نعرف غالباً قيمة ما في أيدينا إلا بعد أن يضيع منا.. فإذا فقدناه بكيناه وتمنياه لكن هذا الزوج فيما يبدو كان يعرف قيمة ما في يده. إنني يا صديقي أقدر مشاعرك وعذابك وأنت تواجه الحياة وحدك بعد رحلة طويلة، كان لك خلالها شريكة أعطتك كل هذا العطاء.. وكل هذا الإحساس بالأمان لكنني أسالك.. ألسنا نحيا حياتنا ونحن نعرف أن الله سوف يأخذنا منا في أية لحظة؟ ومع ذلك نعيشها ونرضى بها ونستمتع بها.. أو لسنا نعرف جميعاً أنه لا جديد في ذلك ولا نهاية له، وأن هذه هي الدنيا "الناقصة" التي نعرفها جيداً.. إنني لا أوسيك بهذه الكلمات ولا أقول لك شيئاً لا تعرفه.. لكننا نحتاج أحياناً إلى من يعيد

على مسامعنا ما نعرفه جيدا وننساه أحيانا تحت وطأة الصدمات المزلزلة.. لقد نشرت ذات يوم رسالة مشابهة إلى حد ما لرسالتك هذه فتلقيت تعليقا عليها من الأستاذ الدكتور محمد عصام فكري أستاذ الأمراض الباطنة ورئيس وحدة الشيخوخة بطب الإسكندرية، يقول فيه إن آلام الوحدة بعد التقاعد أو فقد شريك العمر ظاهرة معروفة لدى المشتغلين بالشيخوخة، يطلقون عليها حالة فقدان الرفيق، أو حالة "فك الارتباط بالمسؤوليات" نتيجة للإحالة إلى المعاش، وأن أهم النصائح التي ينبغي أن توجه لمن يعاني هذه الحالة هي الاختلاط وهو متيسر في النوادي والجمعيات، والاندماج في المجتمع بقدر الإمكان والرحلات والسياحة، إذن فسلحك الأول لمواجهة هذه الحالة هو الاختلاط والرحلات والسياحة، فحاول يا سيدي أن تستفيد بها.. وأن تخرج قليلاً من المعيشة الكاملة لأفكارك، أما رغبتك في العمل والزواج فلو توفرا بلا مشاكل.. وخاصة في الزواج فهما مفيدان في مواجهة الوحدة.. لكن لكل شيء أرباحاً وخسائر فهل أجريت حساباتك بدقة في موضوع الزواج.. وأنت كما تنطق رسالتك تعيش طيف زوجتك الراحلة ليل نهار، إنني لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال بل أنت الذي تستطيع وحدك.. فأجب عنه أولاً ثم أحزم أمرك بعد ذلك، والانتظار قليلاً مفيد في كل الأحوال لكي لا تتأثر قراراتك بظروفك النفسية.



بطاقة زيارة

أكثر ما يؤلم النفس أن يحاسب المرء على شيء لم تجنّه يداه.. ولم يختره لنفسه بإرادته.. تذكرت هذه الحقيقة وأنا أقرأ رسالة هذا الشاب لقد كتب إليّ يقول.. ” ترددت كثيراً قبل أن أكتب إليك لكني لم أجد في النهاية وسيلة أزيح بها عن صدري همومي سوى أن أكتب إليك، لعلني أجد عندك جواباً عن سؤال يحيرني.. أما السؤال فسوف أوجهه إليك في نهاية رسالتي، وأما قصتي فقد بدأت وأنا في سن العاشرة حين داهمني مرض لعين هو الحمى الشوكية، فصار عني وصار عته ثم نجوت منه لكنه ترك لدي بطاقة زيارة دائمة رافقتني بعد ذلك طوال حياتي هي ضعف السمع. شكرت الله كثيراً لنجاتي من هذا المرض، ورضيت بقضائه، ولم تضعف معنوياتي بسبب آثار هذا الزائر اللعين، وكرست حياتي للدراسة وبذلت جهوداً مضية لأعوض نقصي في الدراسة.. ووفقتني الله في إنهاء دراستي والحصول على بكالوريوس التجارة بتقدير جيد مرتفع، ولا تتخيل فرحتي أو فرحة أسرتي بنجاحي.. فلقد أثبتت لنفسي أنني لا أختلف عن الآخرين.. وأقبلت على الحياة بتفاؤل وأمل لكني لم ألبث أن ووجهت بما تصورت أنني قد اجتزت حاجزه. فقد بدأت أطالع إعلانات الوظائف في الصحف وأتقدم للشركات التي تطلب خريجي التجارة.. أقدم أوراقى للمتحمين فألاحظ ارتياحهم لدرجاتي في البكالوريوس ولتقديرى، ثم أجدهم يتوقفون دائماً أمام ورقة لعينة من بين أوراقى تفيد أنني حاصل على إعفاء من التجنيد، فيسألني الممتحن ببراءة لماذا حصلت على إعفاء من التجنيد؟.. فأجيب الإجابة الصادقة لأني مرضت بالحمى الشوكية في طفولتي فتركت أثراً في سمعي أعاني بسببها من ضعف بسيط في السمع.. أعالجه بسماعة طبية دقيقة لا تكاد ترى.. وها أنذا أتحدث إليك وأسمعك وأجيب عن أسئلتك، فألاحظ على الفور تغير ملامح أعضاء لجنة الامتحان.. إن بعض الناس لا يعرفون كيف يخفون مشاعرهم فتنطبع على الفور على وجوههم وتنعكس في نظراتهم.. أصبحت أحفظ هذه النظرات جيداً.. إنها مزيج مؤلم من الإشفاق والتعجب لتقدمي لهذه الوظيفة، ثم يكون الجواب التقليدي.. سنكتب لك على عنوانك ثم لا يكتب إليّ أحد.. واجهت هذا الموقف مرات عديدة، وحفظت كل مشاهدته من مشهد البداية حتى مشهد النهاية.. ولن تصدقني إذا قلت لك إنني في الاختبار الخامس أو السادس لا أذكر على وجه التحديد حين ووجهت بنفس السؤال المعتاد نهضت واقفاً ثم أجبته قائلاً.. لأن هذه هي إرادة الله يا سيدي.. من فضلك أعد إليّ أوراقى ولا تكلف نفسك عناء الوعد بالكتابة إليّ، لأنك لن تكتب إليّ، ثم انصرفت حاملاً أوراقى مشيعاً بنظرات الدهشة والاستغراب، إنني لا أكتب لك لأطلب عملاً.. فأنا الآن أعمل عاملاً بمترو الأنفاق أؤدي عملاً عضلياً مرهقاً، لا يمت بصلة لدراستي. معظم زملائي فيه من غير حملة الشهادات وأكثرهم يحملون شهادات محو الأمية.. لكنهم شباب مكافحون طيبون يحرصون على مشاعري “بذوق” أولاد البلد الفطري.. الذي يملي عليهم مثلاً عدم الإشارة أبداً في أحاديثهم معي إلى سماعتي الطبية أو إلى ضعف سمعي.. لكني أكتب إليك لأسألك هل كنت

مخطئا حين أصررت على مواصلة تعليمي الجامعي وحين أصررت على النجاح
والتفوق رغم مشكلتي؟“



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

وجوابي عن سؤاله المؤلم في كلمات مختصرة هو، لا يا صديقي لم تخطئ ولم ترتكب إثماً بمواصلة دراستك، فلقد أدبت واجبك تجاه نفسك وغالبت ظروفأ أقوى منك فكافأك الله بالنجاح والتفوق، لكن المجتمع هو الذي لم يؤد واجبه تجاهك بعد.. وهو الذي أخطأ في حقك.. ولم تخطئ أنت في حقه، والمجتمع في النهاية هو البشر الذين نعيش معهم وبينهم، ومصيبة بعض مسؤولي الشركات عندنا أنهم يتعاملون مع طلاب الوظائف بصفة عامة بمنطق الحسابات الصارمة التي لا تدع مجالاً للاعتبارات الإنسانية، وقد تعلمنا هذه الاشتراطات الصارمة بكل أسف من الشركات الأوروبية والأمريكية، لكننا لم نتعلم منها أيضاً أن هذه الشركات تخصص بعض مواردها لخدمة المجتمع الذي تعمل فيه، ولبعض الأنشطة غير التجارية التي تخدم المجتمع.. ولم نتعلم منها أنها تعين في هذه الأنشطة الفرعية بعض أصحاب الحالات المشابهة لحالتك للاستفادة بقدراتهم وهي قدرات طبيعية بكل المقاييس. إنني لا أريد أن أطيل في هذا الموضوع فلقد كتبت فيه مراراً وأثبتت تجربتي معه أكثر من مرة أن في بلادنا رجالاً أفضل عديدين يقدمون الاعتبارات الإنسانية والاجتماعية على الشروط الجامدة للتعين في الوظائف،

فاتصل بي يا صديقي فلعل الله يهييء لي ولك من هذه الأزمة فرجا.. والله
المستعان على ما يصفون!



الاختيار

بعض الرسائل تشل قدرة الإنسان على التفكير.. ومنها في رأيي هذه الرسالة.. أنا سيدة عمري 28 سنة.. أعمل طبية أخصائية للأمراض الجلدية، نشأت في أسرة ثرية معروفة وعشت حياة طبيعية، وفي ذات يوم عرض علي شاب مريض بمرض جلدي منه، وخلال فترة العلاج تعرفت عليه وأحبني وأحبته ثم تقدم للزواج مني ووافقت أسرتي معارضة وزففت إليه.

وهذا الشاب بدأ حياته في ظروف مأساوية فقد تربى في بيئة فقيرة وحصل على الثانوية العامة ثم التحق بالجامعة وعمل لينفق على تعليمه، ثم نجح في عمله وكسب مالاً كثيراً وتزوج من سيدة لم يوفق معها، ثم صدم في إخلاصها له فطلقها، وقال لي إنه تقدم لفتيات كثيرات رفضه لأنه شكله غير مقبول ووجه غير وسيم، وبالمناسبة فأنا على قدر كبير من الجمال والذكاء، وقد تزوجت هذا الشاب وأحبته كثيراً وعشت معه حياة سعيدة كل السعادة، ووجدت لديه الحنان والعطف والطيبة وقد أرادني أن أكون ملكة في بيته وأن يحضر لي الشغالات فرفضت لأني أريد أن أخدمه بنفسه، وفعلاً خدمته وأصبحت له زوجة وسكرتيرة.. أرتب مواعيد وأكتب له المذكرات واختار ملابسه.. وبعد عامين من الزواج وتأكدت من خلال الفحص الطبي الذي أجراه على نفسه أنه غير قادر على الإنجاب.. فعرض علي أن نتبنى طفلاً من أحد الملاجئ لكي لا أشعر بنقص الأطفال في حياتي، فرفضت وقلت له إنه يكفي أن أكون بجواره.. وأن أكرس حياتي له فطلب مني أن أستقيل من عملي لأنه لا يحب أن يراني مرهقة وموزعة بين العمل والبيت، فاستقلت فعلاً وتفرغت نهائياً له ولحياتي السعيدة، ومضى العام الثالث من زواجنا وسافرنا إلى الإسكندرية للاحتفال بعيد الزواج، وفي رحلة العودة اصطدم لوري كبير بسيارتنا، فأصيب زوجي بكسر في ذراعه وبجروح بسيطة، أما أنا فقد أصبت بفقد البصر وأجريت 4 جراحات لاستعادته فشلت كلها، لكني لم أياس من رحمة الله وسأجري جراحة أخرى يوم 25 نسبة نجاحها تزيد على 95 % وأملني كبير في الله في أن استرد بصري، تسألني بالطبع كيف كتبت لك هذه الرسالة وأنا عمياء، لا بأس. إنني أملني رسالتي هذه على شغالتي وأمينة سري التي تربت معي في بيت أبي، وحين أصبت بفقد البصر أصر أبي على أن تصاحبني لتخدمني، ومضت الحياة بعد ذلك ولم يتغير شيء فأنا باقية على حبي لزوجي وأتفاني في خدمته حتى مع ظروفني الجديدة، وهو أيضاً على حبه وإخلاصه لي وتفانيه في إسعادي، بل إنه أصبح أيضاً عيني التي أرى بها الدينا. لكنني فجأة لاحظت منذ حوالي شهرين أنه قد أصبح كثير السفر والمبيت خارج البيت، إنه محام مشهور يترافع في قضايا عديدة في محافظات مختلفة ويسافر كثيراً.. لكنني رغم ذلك لاحظت أن نوبات سفره قد زادت بالذات إلى الإسكندرية، وفي إحدى المرات غاب هناك أسبوعاً كاملاً كان يتصل بي خلاله كل يوم بالتليفون، ويعدني بالحضور ثم حضر أخيراً متعللاً بأن القضية كانت مرهقة وطالت جلساتها. ولم أعترض وفي الصباح غادر البيت إلى مكتبه، وقالت لي

أمينة سري إن بذلة زوجي تحتاج إلى تنظيف فطلبت منها إخراج محتوياتها قبل إرسالها للمكوجي ففعلت، فإذا بها تجد بين أشياءه قسيمة زواج حديثة من سيدة بالإسكندرية، لم أصدق نفسي فطلبت منها أن تقرأها مرة ثانية وثالثة ورابعة وحين انتهت من قراءتها للمرة الخامسة، كنت قد غبت عن الوعي. لماذا يا ربي؟.. لأنني عمياء؟ إن عمامي مؤقت كما يقول الأطباء.. ثم ما معنى هذا؟ إن تصرفاته معي تقول لي إنه مازال يحبني ويغمرني بعطفه وحنانه فلماذا يتزوج غيري؟ وماذا أفعل الآن؟ إنني لم أفاتحه بعد بأنني قد عرفت بنياً زواجه ولم أفاتح أهلي به، ولو فعلت لسعوا إلى تطليقي منه على الفور.. وأنا الآن حائرة لا أعرف ماذا أفعل؟ فأني إذا أبلغت أهلي بالنبا وطلقوني منه ثم أجريت الجراحة ونجحت واستعدت بصري فأني سأندم طوال حياتي على أنني طلقت منه، وإذا فشلت العملية فأني لن أندم على عدم إبلاغ أهلي، لأنني في هذه الحالة سأظل عمياء ولن أستطيع خدمته كما كنت أفعل في سنواتنا الأولى.. وإن كنت سأزداد ارتباطاً به لأنه عيني التي أرى بها ماذا أفعل؟ أرجوك أن تجيبني قبل موعد الجراحة يوم ٢٥ الحالي.



ولكاتبه هذه الرسالة أقول:

هذه هي رسالة الزوجة المعذبة التي تلقيتها.. والتي عنيتها حين قلت إن بعض الرسائل تشل قدرة الإنسان على التفكير فالحق يا سيدي أنني لا أريد أن أغامر بإبداء رأي حاسم في مشكلتك، وأفضل أن أستعين بعقول القراء لتشاركني مهمة التفكير الصعبة في النصيحة المناسبة لك، فمشكلتك صعبة بالفعل وأنت تواجهين فيها اختياراً مريراً بين الرضا بحياتك الحالية وبما تقدمه لك من بعض العزاء.. وبين هدم المعبد من أساسه والبدء من جديد في ظروف قد لا تكون مواتية.. أنت تواجهين الاختيار بين الرضا بنصف زوج وبنصف الحنان والحب، والوحدة وافتقاد الرفيق الذي تميلين إليه وعليك وحدك أن تختاري، ولو تركت لنفسك العنان لقلت إنني أحس من كلمات رسالتك إنك متمسكة به رغم كل شيء وراغبة فيه وفي استمرار الحياة معه، ولقلت لك إن ظروفك الأخيرة ليست في رأيي الدافع الأساسي وراء نزوة زوجك ومغامرته الحمقاء.. ذلك أن بعض الرجال يرفضون أن يصدقوا أنهم المسؤولون عن عدم الإنجاب رغم نتائج الفحوص، ويسعون سرا

لتجربة حظوظهم مع أخريات لإقناع أنفسهم بأنهم قادرون على ما حرمتهم الطبيعة منه. أعتقد أن هذا هو سبب مغامرة زوجك وليس فقدك للبصر، فقدك للرؤية مؤقت. وأنت تنتظرين جراحة نسبة نجاحها عالية.. ولم يمض وقت طويل على تعرضك للمحنة بحيث ييأس زوجك ويحاول تعويض نفسه مما فقد، وحتى لو كان فقدك للرؤية دائماً.. أيكفي هذا وحده لاتصراف عنك!

إننا نعرف نماذج عديدة ناجحة لزواج موفق سعيد بين أزواج وزوجات حرمتهم الله نعمة البصر لذلك فإن هذا السبب لا يكفي وحده في رأيي لاتصراف عن زوجة محبة مخلصه مثلك. ثم ألم يفكر زوجك ماذا كان من الممكن أن يحدث لو أصيب هو في هذا الحادث بفقد البصر وأصبحت أنت بالجروح البسيطة؟

أكنت تتخلين عنه بهذه السرعة؟ أشك في ذلك كثيراً.. لأن المرأة السوية عادة أكثر رضا بقضاء الله من بعض الرجال الجاحدين، إنني لا أريد أن أوصل الحديث معك لكي لا أنجرف إلى إبداء رأي محدد قد يكون جائراً، لكنني سأنقل إليك ما أتلقاه من آراء قراء البريد، وإلى اللقاء.



رسالة من أب!

أعرف تماماً أن لكل قاعدة استثناء، وأن حالة مرضية واحدة لا تصلح للحكم على الأشياء ولا لاستخلاص أحكام عامة، ولا للحكم على المجموع، ومع ذلك فإنني أستجيب لرغبة كاتب هذه الرسالة " المفزعة " في نشرها لأنها تنبه إلى مشكلة خطيرة، ولأنني أحس بصدق كاتب هذه الرسالة في كل ما كتب، وأحس أيضاً بصدق رغبته في أن يستفيد الآخرون من تجربته المؤلمة بأن يتفادوا الوقوع في مشكلة شبيهة بها.. فأنبل الألام ما يدفع الإنسان إلى محاولة تجنب غيره معاناتها أو مكاببتها!

إنني أنشر هذه الرسالة وقلبي واجف لأنني أعلم أنها ستثير فزع الكثيرين.. وغضب الذين قد يفهمونها على أنها مساس بأصحاب أنبل المهن وهي مهنة التعليم والتربية.. ولهؤلاء فإني أقول مقدماً إنكم أول من يرفض مثل هذا الانحراف.. وأن الحالة المرضية لا تمس الأغلبية الشريفة.. وأقول لهم أيضاً إن كاتب هذه الرسالة كما سنقرأ بعد قليل هو أيضاً من رجال التربية.. وأكتفي بهذه المقدمة لأنني لن أعلق على هذه الرسالة.. التي لا تحتاج إلى تعليق.. وإنما تحتاج إلى التفكير وإلى استخلاص العبرة والتجربة منها.. فالحياة تجارب. وتجارب الآخرين قد تعلمنا أحياناً أكثر مما نتعلم من تجاربنا الشخصية، وهذه هي الرسالة بعد حذف بعض عباراتها حرصاً على المشاعر والأعراف:

أسمح لي أولاً أن أقدم نفسي دون توقيع اسمي لظروف سوف تدركها من خلال قراءة هذه المشكلة، أنني أشغل وظيفة علمية كبيرة - بالإضافة إلى العمل في المجال التربوي - وهذا هو الذي دفعني أن أعرض ما أعرض له للقراء - كأب يخشى أن يتعرض الآخرون لما تعرضت له، والقضية أن لي بنتاً صغيرة في المرحلة الابتدائية، وكنتييجة لما نعاناه من المشكلات الدراسية، أحضرت لابنتي مدرساً دخل بيتي في أدب ويخرج وعيناه في الأرض خجلاً ومضت السنوات.. وبالأمس القريب - وابنتي لم تصل إلى سن العاشرة بعد - تكلمت مع أمها وبطريقة المصادفة عن أن هذا المدرس يضع يده في ملابسها رغم أن باب الحجرة التي يقوم بالتدريس بها يكون مفتوحاً باستمرار - ولم يحدث ولو مرة واحدة أن أغلق رغم ثقنتنا العمياء به - إلا أنه بأسلوبه - كان يقرب الطفلة منه، وكانت تقاوم باستمرار، ولا ندري ماذا يفعل، بل إنها كانت تعتقد بأن ذلك نوع من التشجيع. أقول هذا للذين يثقون بالآخرين مهما كانوا ورغم أنني وزوجتي فتحنا ذراعينا وبيتنا للرجل، فإنه خان العهد ولولا لطف الله ورحمته لربما انساق في أكثر من ذلك - أقول ذلك وأنا وزوجتي كنا في أشد الحرص - إلا أن هذا استطاع أن يحقق بعض مآربه مع العلم بأنه متزوج وله أولاد وساعدناه كثيراً - ويعلم الله ذلك.

وأخيراً لا تسألني ماذا استفعل - فأحمد الله أنني وزوجتي استطعنا أن نمر وطفلتنا بأمان من هذه المأساة لما لنا من خبرة - ولم نندفع ولم نرتكب عملاً يؤثر على سمعتنا وحالة طفلتنا النفسية.

أرجو ألا نترك أبناءنا مع الكبار مهما كانت أوضاعهم أو مراكزهم، وليس هذا شكاً في الجميع بل عملاً بمبدأ السلامة والوقاية خير من العلاج.

الإمضاء: "أب"



مولع .. بالسفر!

رسائل عديدة تلقيتها خلال الأسبوعين الماضيين تعلق على موضوع، رسالة من أب التي نشرت في بريد الجمعة بعضها يناقش التجربة.. والبعض الآخر أثارته لديه الرسالة ذكريات أليمة مع تجارب مشابهة، ويرغب أصحابها أو صاحباتها في روايتها للآخرين للعبرة والاستفادة بها في تجنب الأضرار التي تتعرض لتجارب شبيهة، والبعض الثالث يشارك الأب كاتب الرسالة آلامه ويشكره لرغبته الإنسانية في نصح الآخرين بعدم ترك صغارهم بعيدا عن الرقابة والرعاية مهما كانت الظروف، ومهما كانت الثقة في أشخاص الآخرين وبعضها لا يعفي الآباء من مسؤوليتهم عما يحدث لأبنائهم، وبناتهم مهما كانت مسؤولية الآخرين، وتطالبهم دائما بأن يكون صغارهم تحت أنظارهم دائما عملاً بمبدأ الوقاية خير من العلاج.

ومن الصعب أن أعرض كل ما تلقيته من رسائل حول هذه المشكلة لكثرتها من ناحية ولحساسية الموضوع الذي اقتربت منه في حذر تجنباً للحساسيات من ناحية أخرى، لكنني اخترت رسالة واحدة منها، لأنها تمثل مؤشراً لحالة اجتماعية منتشرة الآن في المجتمع المصري، ومن المفيد أن نقرأها معاً بنفس المنطق الذي عرضت به من قبل قصة "رسالة من أب" أي متعلق الرغبة في الاستفادة من تجارب الآخرين.. لا بمنطق الرغبة في الإساءة إلى أحد أو المساس بأية فئة من الفئات، وقد قلت من قبل في عرضي لرسالة الأب إن حالة مرضية واحدة أو حالات فردية محدودة لا تكفي للحكم على المجموع، ولا لإصدار أحكام عامة.. وهذا ما أقوله الآن مرة أخرى قبل عرض هذه الرسالة: تقول الرسالة التي تلقيتها من سيدة فاضلة بالإسكندرية: نشأت في أسرة متوسطة متدينة، الأب موظف والأم مدرسة وكنت كبرى إخوتي، وأنهيت دراستي وعملت مدرسة بالمرحلة الابتدائية وتزوجت وتفانيت في إرضاء زوجي وأنجبت 3 أبناء. لكن زوجي مولع بالسفر.. وبعد فترة من زواجي سافر زوجي وحده إلى أمريكا ليلحق بشقيقته هناك، وتحملت الوحدة والآلام ونظرات الناس القاتلة لي بصبر حتى عاد بعد عدة سنوات، وتصورت أن متاعبي قد انتهت فها هو الزوج المحبوب قد عاد لأبنائه.. ومعه بعض المال.. وسوف تطيب لنا الحياة خصوصا أنني ليس لي مطالب كبيرة في الحياة، وكنت راضية بحياتي قبل سفره، لكنني فوجئت به يودعني لأنه سيسافر إلى إحدى الدول المجاورة ليدير بها فندقا كبيرا هناك!

وبالفعل فلقد سافر وحده مرة أخرى بلا زوجته وأبنائه الثلاثة.. وتعجبت ما الذي يضطره إلى ذلك وهو ليس في حاجة شديدة للمال.. كما أننا نحيا حياة طبيعية ولسنا في حاجة إلى هجرة جديدة!

سافر الزوج إلى مهجره الجديد وأقام في فندقه وحقق نجاحا كبيرا. واكتشفت فجأة أنه قد مضى على هجرته سواء إلى أمريكا أم إلى الدولة المجاورة أكثر من 13 عاما. وكل ما يربطنا به هو زيارة خاطفة لعدة أيام كل بضعة شهور.. زيارة لمدة 7 أيام كل بضعة شهور.. ولا شيء يهمه بعد ذلك سوى نجاحه، أما أبنائه

فمسؤوليتهم تقع عليّ وحدي.. أما زوجته وهي أنا.. فلها الله.. المهم احتجت إلى الاستعانة ببعض المدرسين لتقوية أبنائي، فاستحضرت مدرساً اشترطت عليه أن يأتي مبكراً وأن يغادر شقتي قبل الغروب، مراعاة لظروفي كزوجة وحيدة، ومضت الحال هكذا حتى جاء الشتاء وتغيرت المواعيد، لأن الظلام يحل مبكراً.. وذات يوم كانت السماء تمطر فاستعار الرجل مظلة تقيه المطر عند خروجه ثم غادر المسكن بعد انتهاء عمله، وانتهى اليوم ودخل الأطفال أسرتهم ونمت أنا ثم صحت على صوت الجرس فاستيقظت منزعة لأجد هذا الشخص متذرعاً بحجة إعادة المظلة إليّ..، ولن أطيل في ذكر تفاصيل ما حدث لكنني سأقول فقط إنني تعرضت لمحنة شديدة تمزقت فيها ملابسني وقبلت فيها قدم وغد وأنا أتوسل إليه أن يرحم ضعفي وأن يدعني في حالي، وكان ما يشغلني هو ألا يشعر أولادي أو جيراني بشيء حرصاً على سمعتي وعلى نفسية أبنائي.. وستر الله على فاستجاب الوغد لمطلبي وانصرف بعد بهدلة وعذاب ولم يشعر أبنائي بشيء. والحمد لله.. لكنني تعرضت بعدها لأزمة نفسية شديدة، ورغم مضي وقت طويل على هذا الحادث فإن بصماته لم تنزل غائرة في نفسي، ولم أخبر أحداً بما حدث حتى لا أسيء لنفسي أكثر من أي شخص آخر، حتى قرأت في بريدك رسالة الأب فثارت هذه القصة في نفسي ووجدتني أكتب إليك لتنتشر ما حدث لي كدرس لكل من يترك وراءه زوجة صغيرة شابة وحيدة لمصير مجهول، لفترات طويلة بلا مبرر وبلا ضرورة، ولكي أقول لهؤلاء إنني سيدة متدينة لكن الكمال لله وحده، والنفس دائماً ظمأى للكلمة الطيبة.. والسلام عليك.. وتحيتي للأب كاتب الرسالة الذي أقول له لست وحدك الذي عانيت هذه المرارة.



ولكاتبه هذه الرسالة أقول:

هذه هي رسالة الزوجة التي اخترتها للنشر من بين الرسائل العديدة والتي تفجر هذه المشكلة الخطيرة.. ولهذه الزوجة الصادقة أقول إنني أقدر ألامك وعذابك وتضحياتك.. لكنك يا صديقتي أخطأت بحسن نية فلقد كان من الأفضل في مثل ظروفك أن يعتمد أبناؤك على أنفسهم وأن يستعينوا بمجموعات التقوية، أو أن يتلقوا الدروس وسط مجموعة صغيرة من الطلبة في بيتك أو بيت أحد زملاء ابنك، كما أنك أخطأت أيضاً عندما فتحت للمدرس في منتصف الليل لاسترداد المظلة من الوغد، فهي حجة واهية وفي مثل ظروفك فليس من المقبول أن تفتحي بابك لأحد لأي سبب في مثل هذا الوقت المتأخر. لكن أخطاءك أو هناتك لا تقاس بجريمة زوجك في حقك أو حق أبنائك بترككم وحدكم عدة سنوات طويلة بلا مبرر سوى جريه وراء طموحه، أو بمعنى أصح وراء جشعه ونهمه للمال. فأمثاله كثيرون يصطحبون أسرهم معهم، أو يهاجرون لفترات محدودة لحل مشكلاتهم المالية، ثم يعودون لرعاية أسرهم وهذا النموذج البشع لزوجك موجود الآن بكل أسف في مجتمعنا، نموذج "المهاجر" الذي يترك وراءه أسرته وتطول هجرته، بعد أن شبع وارتوى من المال ولم يعد هناك مبرر قوي لاستمرار هجرته، أو لاستمرار تمزق أسرته والعجيب أن مجتمعنا الآن به طائفة لا يستهان بها من الأمهات اللاتي يتولين وحدهن مسؤولية الأبناء الكاملة، كان الآباء قد انتقلوا إلى رحمة الله.. لا لشيء إلا لأن الأب "مستमित" في جمع الثروة بالخارج بعد أن حل مشكلته المالية.. لكنه لم يشبع بعد، إننا لا نلوم مهاجراً تضطره الظروف لترك أسرته وراءه لفترة، لكننا نلوم من يفضل تركها وراءه بلا مبرر ليتخفف من أعبائها.. ونلوم من حقق نجاحاً وثروة ويرفض العودة لأسرته لأنه أصيب بالسعار.. وأصبحت الحياة عنده أرقاماً وحسابات بنوك.. وشقق تمليك وشهادات استثمار فقط.. وهم كثرة الآن بكل أسف. وهؤلاء ينسون أن المال عند البعض كالماء المالح كلما شربت منه ازدادت عطشاً، وهؤلاء ينسون أن رعاية الأبناء والزوجة هي مسؤوليتهم الأولى في الحياة.. وهي الهدف الذي كان ينبغي أن تيسره لهم الثروة.. فماذا يجدي المال وحده وحياة الإنسان ممزقة وأبناؤه ضائعون، لقد استن الخليفة العادل عمر بن الخطاب قاعدة ألا يغيب الرجل في الجهاد عن زوجته وأبنائه أكثر من ثلاثة شهور، يعود بعدها لأسرته وطبق هذه القاعدة على المجاهدين في سبيل الله، فما بالك بالمجاهدين في سبيل المرسيديس والفولفو وشقة العجمي، وشهادات بنك مصر الدولية؟ ألا تطالبهم النخوة باصطحاب أسرهم معهم أو بالعودة لها بعد الارتواء؟ إنني أتمنى أن يقرأ بعض "

المجاهدين ” رسالة هذه الزوجة وأن يتفهموا معنى كلماتها المعبرة الصادقة.. إن
الكمال لله وحده ” فالكمال لله وحده فعلا يا..... وإلا بلاش!



رسالة من شاب

بعض الرسائل أحس حين أقرأها أن حروفها لهيب وكلماتها أشواك، ومن هذه الرسائل وبلا مقدمات طويلة . هذه الرسالة:

”أكتب إليك عن مشكلتي وكلي أمل في أن تنشرها وهي ليست مشكلتي وحدي لكنها مشكلة كل شباب الجيل الحائر التعس.

من الطبيعي أن أبدأ بأن أعرفك بنفسي وإن كنت سأعذر عن ذكر اسمي لأسباب ستعرفها بعد قليل.

أنا يا سيدي ضابط شرطة شاب تخرجت منذ 3 سنوات، وأمضيت في خدمة الشعب والشرطة 3 سنوات كاملة حتى الآن، وكان من الطبيعي أن أفكر في أن أتقدم لخطبة الإنسانية التي أحببتها وتمنيتها شريكة لحياتي، وهنا بدأ العذاب وبدأ الأرق بسبب احتياجي لأشياء كثيرة منها المهر والشقة، وبالذات الشقة، حاولت كثيراً وبكل الطرق أن أحصل على شقة، فوقف العجز المادي أمامي كأنه شيطان يخرج لي لسانه.. شقيت كثيراً وحاولت كثيراً وبكيت كثيراً، فوالد حبيبتي يطالبني بالشقة وأنا عاجز تماماً.. فمن أين أدفع هذه الخلوات الباهظة وليس لي سوى راتبي ومن أين أدفع ثمن الشقة، التمليك “؟ ومعظم العمارات تمليك الآن ومتوسط السعر 25 ألف جنيه، باختصار رفضني والد خطبتي وأنهى ما بيني وبينهم، وبالطبع فسوف أعبر آلامي.. وسوف أتزوج في يوم ما غيرها.. لكنني سوف ” أفطم ” أولادي إن شاء الله على انتهاز الفرص والسرقة وقبول الرشوة! إذا أمكن لكي لا يكرروا غلظتي وهي الأمانة في عملي!، أما أنا فلكي أستطيع أن أدفع ثمن الشقة فلا بد أن أكون “منحرفاً”.. وفعلاً سوف أكون كذلك مثل آخرين.. لكنني أرجو أن تعرض مشكلتي على المسؤولين لعلمهم ينقذون هذا الجيل من الاحتراق.. فنحن نحترق فعلاً أمام عجزنا.. وأتمنى من الله أن يكون كلامي هذا صادراً عن البركان المتفجر داخلي الذي أظهر في كلامي هذا الحقد والغضب. وأتمنى من الله أن يوفقنا إلى ما فيه خير هذا البلد الذي يحتاج إلينا وإلى جهدنا وإن كنت أعتقد أن ذلك غير ممكن في ظل نفسية هذا الشباب المحطم!



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هذه هي الرسالة الشائكة، ولست في حاجة لأن أقول إنني ترددت قليلاً في نشرها، لكي لا يسيء البعض فهمها. لكنني لم أتوقف طويلاً أمام هذا التردد فهي ليست مشكلة ضابط شرطة بقدر ما هي مشكلة شاب مثله آلاف بل ومئات الألوف من الشبان الذين يقفون محاصرين بالعجز والإحباط، أمام مشكلة الشقة وتكاليف الزواج، وهي أيضاً ليست رسالة بالمعنى الصحيح لكنها صرخة جيل بأكمله وهذه هي خطورتها الحقيقية! وبلا حساسيات فهي صرخة جيل يطالب بتركيز الجهود على حل مشكلة أساسية من مشكلات حياته، لكي لا تتضاعف آثارها المدمرة للمعنويات والمحبة للآمال. لا جديد في هذا الكلام.. فهو معروف محفوظ. لكن أهمية بعض الرسائل أنها تلقي الضوء على الجانب الإنساني المؤلم من المشكلات العامة المعروفة، وتدعو للتفكير والتأمل. هذا عن المشكلة العامة أما عن صديقي كاتب هذه الرسالة ففي الحقيقة فإني لست قلقاً من "وعيده" بأنه سوف يتخلى عن الأمانة وأنه سوف يفظم أبناءه على انتهاز الفرص.. إلخ، فإني على ثقة أنه ليس وعيداً صادقاً لكنه صرخة احتجاج صادرة عن غضب ومرارة، أحس بها هذا الشاب وهو يحرم من شريكة حياته لسبب، لا يملك، خارج عن حدود طاقته وإمكانياته، إنه شاب مطعون في قلبه وفي كرامته وفي أمه..، لكنه بالتأكيد شاب نقي أمين بدليل كتابته لهذه الرسالة بكل هذا الصدق، وبكل هذه الرغبة في إنقاذ هذا الجيل من الاحترق.. وبدليل تمنياته الطيبة لبلاده رغم تحفظاته على إمكانية تحقيق هذه الأمنيات.

إنك يا صديقي لن تفعل شيئاً مما قلت.. لكنك ستواصل طريق الأمانة والشرف وسوف تربى أبناءك على القيم والأخلاق لا على انتهاز الفرص.. لأنك لن تكسب شيئاً إذا كسبت العالم كله وخسرت نفسك، ولأنك لن تسعد بأبنائك إذا رببتهم على

هذا المثال.. فإنك إن فعلت فسوف تكون أنت أول من يضحون به لتحقيق أحلامهم بالطريقة التي علمتهم إياها! إنك جريح يا صديقي وأنا حزين من أجلك، لكني واثق من نقاء معدتك، ولسوف يوفقك الله إلى شريكة حياة تستحقك وإلى صهر متعقل متفهم يقدرك حق قدرك وأمامك كثيرون جدا والدنيا مليئة بهم، لكن المؤسف أن بعض الآباء يشتركون مع أزمة المساكن الطاحنة في الضغط على الشباب الراغب في الزواج.. إلى الحد الذي يهدد بالانفجار.. ويحاصرهم بالعجز والإحباط ويكاد يدفعهم دفعا إلى الانحراف.. وهذه جريمة أخرى لا تقل خطراً عن جريمة وقوف شاب طيب أمين كهذا الشاب عاجزاً عن تحقيق أحلامه في حياة أسرية شريفة لهذا السبب اللعين.



مكالمة تليفونية!

رن جرس التليفون، ترددت في أن أرفع الساعة فقد كان ما سمعته منه في ذلك اليوم يكفيني ويزيد من آلام الناس ومشاكلهم. نظرت إلى التليفون أملاً أن ييأس ويصمت لكن الرنين ازداد إلحاحاً. مددت يدي إلى سماعة التليفون متوجساً فجاءني صوته يقول: فلان؟ أنا ضابط الشرطة! الذي كتبت عنه، تذكرته على الفور على الرغم من أنني لم أكن أعرف اسمه حين نشرت قصته في بريد الجمعة بعنوان "رسالة من شاب" إنه الضابط الشاب الذي فسخت خطوبته بسبب الشقة وكتب إليّ غاضباً متألماً. تصورت أنه يتصل بي استجابة لرسالة الأب التي نشرتها في الأسبوع الماضي والتي يعرض فيها عليه الزواج من ابنته طالبة الجامعة، لكنني فوجئت به يبلغني على عكس المتوقع نبأ سارا! قال لي: أرجوك أن تشكر على لساني هذا الأب الفاضل على مشاعره الأبوية الكريمة، لكن هناك أشياء قد جدت خلال الفترة التي تلت نشر رسالتي. قلت له: ماذا حدث؟ قال: كان ما كتبتة عني معبراً عن حقيقة مشاعري، وأنا أعاني من صدمة انهيار الأحلام على صخرة البحث عن شقة.. وكانت كلماتي الضائعة الحائرة عن الشرف والأمانة "ووعيدي" بالانحراف هي مجرد تعبير عصبي عن حالتي النفسية وأنا في قمة المأساة. وقد عبرت أنت عن ذاتي الحقيقية وضميري حين قلت في ردك على إنني رغم ذلك لن أنفذ هذا الوعيد وأنني سأواصل طريق الشرف وخدمة الناس، على الرغم من الآمي. قلت له وبعد؟ قال بعد نشر رسالتي تأثر والد خطبتي بما كتبتة.. وتأثر أبي بما نشر فتلاقت النوايا الطبية وعادت المياه إلى مجاريها، وتم تحديد يوم لإعلان استئناف الخطوبة واتصلت بك لأدعوك لحضور حفل خطوبتي الجديدة القديمة فلم أنجح في العثور عليك، وكنت أتمنى أن تكون معنا فقد كان لكلماتك دور مهم في إعادة الشمل. قلت له مبتهجا: هذا خبر سعيد "لا تتصور سعادتي بسماعه" الدنيا بخير قال: وأسعد منه أنني وفقت إلى العثور على شقة ملائمة لإمكانياتي بمساعدة أصهاري وأقاربي.. والحمد لله فلقد حلت المشكلة! سمعت ما يقوله غير مصدق أن يحمل إليّ نفس هذا التليفون هذه الأنباء السعيدة بعد أن كادت أسلاكه تذوب من حرارة المآسي التي تتردد عبرها. صمت قليلاً لأختبر مدى جديته فوجدته جاداً تماماً.. تفكرت قليلاً في اختيار كلمات تهنئة رقيقة بالشقة والخطوبة وعودة الأمل.. وهممت بأن أقولها له.. فوجدت لساني يفلت بلا إرادة وينطق رغماً عني بهذه الكلمات: أنت مابتتكلمش ليه.. ابقى أتكلم كل يوم!!! وانتهت المكالمة!!





يوم الزفاف!

أنا قارئ مستديم طوال حياتي للأهرام - وأنا موظف بالمعاش تجاوز عمري الخامسة والستين... وقد أصبت بجلطة في الشريان التاجي منذ ثمانية شهور ومستمر في العلاج، وقد تجاوزت مرحلة الخطر وفي طريق الشفاء بإذن الله. والمشكلة أن ابني الأوسط خاطب وعلى وشك الزواج.. وقد "طول" لسانه عليّ عدة مرات فنهيته عن ذلك مراراً وحذرت أنه لو أخطأ مرة - أخرى "وطول" لسانه عليّ فإني أقسم يمينا بالطلاق ألا أحضر قرانه وزفافه فتحداني.. وأخطأ في مرة أخرى وفي لحظة "الغلط" حلفت يمينا بالطلاق ألا أحضر قرانه وزفافه، وأن قد اقترب موعد القران فهل من مخرج.. وهل توجد كفارة عن يمين الطلاق.. أم لا أحضر قرانه!.. أرجوك أن تهتم بإبداء النصح لي وبسرعة لأن يوم الزفاف يقترب. رمل الإسكندرية.



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ولماذا تبحث عن مخرج لحضور الزفاف.. والحنث بقسمك؟ إن مشكلة القسم بالطلاق والعدول عنه مشكلة صغيرة يستطيع أن يحلها لك أي إمام مسجد قريب من منزلك.. ويستطيع أن يهديك لما تفعل في هذه الحالة لكن هذه ليست القضية، وإنما القضية هي لماذا تريد أن تحنث بقسمك وتحضر زفاف هذا الابن العاق الذي تطاول عليك مرة وأخرى وثالثة وأنت مريض حتى حذرته ونبهته وهددته. فلم يرتدع إنني أعرف أن التسامح قيمة إنسانية نحتاج إليها لكي تصفو الدنيا ونستطيع أن نتحمل عناءها بقدر الإمكان، لكنني مع احترامي لكل المعاني

الإسانية التي تتضمنها قيمة التسامح فإنني لا أومن بالتسامح مع ابن يسب أباه المريض أو لا يبدي نحوه الاحترام الكافي.. فهو في هذه الحالة ليس تسامحاً وإنما ضعف.. وليس حناناً وإنما تدليل ضار.. لا بد أنك أسرفت فيه مع هذا الابن العاق في طفولته فأثمر ثماره الرديئة في سن الشباب.. آسف يا سيدي لو سألتني النصيحة.. فإنني أنصحك بالأ تبحث عن مخرج أو كفارة.. إلا إذا ندم ابنك ندماً حقيقياً على خطئه في حقلك ورجع عنه نهائياً وهو ما لم تشر إليه في رسالتك المؤلمة هذه..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(تم الكتاب بحمد الله)

متميزون للكتب النصية



الفهرس

مقدمة..

فتاة من قاع المدينة..

رسالة من معيدة شابة

سفينة الحياة

الطريق

في إشارة المرور.

عريس لأختي

موظفة .. قطاع خاص!

أريد حلاً...!!

عيون الآخرين!

وراء الأسوار

في السماء

حياة جديدة

من الشرفة

بنت الباشا

شريط كاسيت

أصل وصورة!

ابن الأصول!

نهر العطاء

امرأة محترمة!

فاتورة حساب

جحيم كل يوم

رسالة من خائف

رسالة من حاقدة!

عند الغروب

بطاقة زيارة

الاختيار

رسالة من أب!

مولع .. بالسفر!

رسالة من شاب

مكالمة تليفونية!

يوم الزفاف!

الفهرس